هرشة دمااغ

اســـــم العمـــــل	:	هرشـــــــة دمـــــــااغ
النـــــــــــوع	:	قصـــــــــــــص
تـــــــــــأليف	:	مصـــــطفى مختـــــار
تصـــميم الغـــلاف	:	أحمـــــــد الملـــــــواني
رســـــم الغـــلاف	:	ولاء القاضـــــــــــــي
إخـــــراج داخلـــي	:	عبـــــــدالقادر فـــــــايز
الطباعـــــــــــة	:	اتيليـــه تـــاتش – المحروســـة
الناشـــــــــــر	:	الـــدار للنشـــــر والتوزيـــع
المـــــدير العـــــام	:	محمـــــد صـــــلاح مـــــراد
تليفـــــــــــون	:	٠١١٢٥٨٠٠٤٦٧
البريـــد الإلكترونـــي	:	eddar_press@yahoo.com
فـــــيس بـــــوك	:	www.facebook.com/eldarpublish
رقـــــم الإيـــــداع	:	٢٠١٧/١١٤٢٢
التـــــرقيم الـــــدولي	:	I.S.B.N.: 978-977-702-185-2

هرشة دمااغ

مصطفى مختار

قصص

الدار
للنشر والتوزيع

٢٠١٧

إهـــــداء

اهدى باكورة كتاباتى الى...

روح امى وابى وحماتى .. رحمة الله عليهم جميعا

زوجتى وشريكة حياتى .. وفلذات كبدى ابنائى الاعزاء ..
والذى ادين لهم بهرشة الدماغ

اخوانى واحبائى واصدقائى وزملائى الذين اسهموا فى ولادة
هذه الهرشه .. بعضهم كابطال للقصص واخرون بالدعم
والمؤازره

واخيرا اهدى هذا الكتاب الى الناشر الفنان المبدع ..
والقارئ العزيز الكريم الذى اقتطع بعض اوقاته للخوض

فى هرشة دماغى

فستان سواريه

أمام مرآتى التى تحتل نصف جدار حجرة نومى .. وقفت أتغندر وأتغزل فيما حباني الله من حسن وجمال، وإن كانت أفروديت تمثل رمز الجمال اليوناني، وفينوس تعد إلهة الجمال الروماني، فأنا بلا فخر منجم الجمال الرباني، وإن أبدع الفنان في نحت تمثال فينوس، فقد وهبني الله قوامًا يتوه في ثناياه جميع النحاتين، وتحتار في محاسنه خطوط الرسامين، كان حسني وجمالي كفيلين بأن يجعلا مني قِبلةً لأنظار جميع الرجال ومِحور همسات الحريم في أي محفل، كما كان توافد الخُطّاب بشكل أسبوعي أمرًا مألوفًا، ورغم أنني لم أبلغ الخامسة والعشرين من عمري، فإنني خِفت فوات قطار الزواج بعد مشاهدة فيلم "المراية"، كما أنني خفت أن تصير نهايتي إلى ما صارت إليه بونبونايـة السينما المصرية نجلاء فتحي في أحداث الفيلم.

كان قرار الاختيار عملية شاقة، فكلما زاد الخُطّاب كثر التردد وزادت الحيرة، وأخيرا استطاع الدكتور نادر استمالتي إذ بات يحاصرني في كل المقاصد، وقد دق باب بيتي أكثر من مرة مُصرًّا على إتمام حلم عمره، وفي حفل أنيق اتخذ مكانه جواري

في الكوشة، رجل وسيم، أنيق، جذاب، واثق الخطى، ناجح في عمله، ابتسامته لا تفارق مُحياه، كان زواجنا محلَّ حسد وغيرة الجنسين معا، فجميع الرجال يحقدون عليه، وجميع المراهقات يرين في نادر فتى الأحلام، بعد سنوات قليلة تسلل داخلي إحساس بالتمرد، حيث رصدتُ أكثر من صديقة تفوز بزواج مليونير، يوفر لها من ترف العيش ما يجعلها ترتدي أغلى الثياب وتقود أحدث السيارات وتتملك أفخم السرايات، هذا على الرغم من تواضع جمالهن مقارنة بجمالي وقوامي.

وتلبية لدعوة إحداهن حرص نادر على إنهاء عمله مبكرا ليصحبني إلى الحفل، ويفاجَأ نادر بارتدائي فستانًا سواريه ابتعته حديثًا، فستانًا يماثل عصا موسى التي قطْعًا سوف تلتهم جميع النسوة في الحفل، فستانًا يُظهر أكثر مما يُخفي، يفضح أكثر مما يستر، يفتك أكثر مما يرحم، حملق بي نادر، وهمهم: لا أصدق، هل أنت جادة فعلا في الخروج بهذا الفستان وهذا المنظر؟

بعد فترة صمت دون استقبال أي رد، قال بلهجة حازمة: اذهبي وبدلي المسخرة دي.

بنفس الحزم جاء الاعتراض والرفض، لم يعقب نادر ولكنه بادر بحل رباط عنقه ثم بدأ في استبدال ثيابه، مرددا: فلنعتذر عن هذا الحفل.

بعد مناقشة أحادية حادة لم يتفوه فيها نادر بحرف، قررت، بل أصررت على الذهاب بمفردي، حينها عاد نادر للحديث: لن أسمح لك بالخروج هكذا، عليكِ تغيير الفستان أولا، ولك ماشئتِ بعد ذلك.

تفاقم الأمر أمام إصراري، ولم يجد نادر سبيلا إلا تخييري بين الطلاق والخروج بهذا الفستان الفاضح.

توجهت إلى الحفل بمفردي غبر مبالية بتهديد نادر، وبعد سهرة صاخبة، عدت إلى المنزل لأفاجأ بدولاب ملابسه فارغًا، وقد حزم حقائبه ومتعلقاته وغادر عش الزوجية بعد أن ترك ورقة طويلة مدونًا عليها كلمتين... أنتِ طاااالق.

فشلت كل محاولات التصالح، وعلى الرغم من حبه وعشقه لي فإنه أبى تماما العدول عن قراره، كما رفض قطعيا الخوض في أسباب الطلاق.

عقب انتهاء العدة لم يكن عسيرا الارتباط بأحد رجال الأعمال ميسوري الحال، وبعد فترة قصيرة من الزواج استرعى انتباهي حرصه على اصطحابي في جميع المنتديات، وحضوري توقيع جميع الاتفاقات، مع عدم الممانعة في مراقصة غيره من أصحاب الصفقات، وما زلت أتذكر جيدا ملامح غضبه حين اعتذرت عن تلبية إحدى الدعوات، وقد احتدم بيننا الجدال ليُسمعني وابلاً من البذاءات لم تتخيل أذناي سماعها في الطريق العام، وتنتهي المشادة بيننا بجذبه لي ودفعه بقوامي الجميل خارج الفيلا.

فشلت جميع محاولاته واعتذراته في استرجاعي، وحين باءت كل الرجاءات بالفشل اشترط تنازلي عن جميع مستحقاتي لإتمام الطلاق.

تذكرت نادر الذي لم يتفوه بأي بذاءات طوال فترة زواجنا، كما تذكرت كرمه وشهامته حين حزم حقائبه هاجرا المنزل، وكان بمقدوره البقاء ومنعي أنا من العودة إلى منزل الزوجية، ولا أغفل حرصه على سداد مؤخر الصداق المسمى بيننا دون أي مساومات.

بعد شهور العدة وفترة نقاهة، ارتبطت بنجم من نجوم المجتمع، وكانت حياتنا عبارة عن احتفالات ودعوات، غالبا ما كانت تنتهي بحمله وشحنه في السيارة بعد إفراطه في الشراب وغيره من المكيفات، وذات ليلة وفي أثناء اجتماع الشلة في منزلنا الفخيم، ومع كثافة الدخانات ورنين الكاسات وموسيقى الأغنيات، وجدته يراقص إحداهن، وقد تباطأت الخطوات والتصقت الأجساد، وصارت مضاجعة وليست مراقصة، وحين بادرت بالتدخل، هاج وماج، وقذفني بمطفأة تكتظ بأعقاب السجائر لتسكن جبهتي، وتشم ندبة في وجه فينوس المصرية.

جاءت خسارتي فادحة، وبقدر فداحتها كان غضبي وإصراري على الانفصال، وبعد مناهدة طويلة تم الطلاق شريطة تنازلي عن جميع مستحقاتي.

تذكرت نادر ومدى عفته وإخلاصه طوال مدة زواجنا، وموقفه الحاسم إبان التدخين والشراب وغيرها من المغيبات.

بعد فترة طويلة من النقاهة، وبعد إلحاح طويل من رجل ثري، قبلت أن أكون زوجة ثانية لرجل يتجاوز فرق العمر بيني وبينه نحو ربع القرن، كان الرجل أنيقا كريما خارج المنزل، بينما تتبدل

الأحوال داخله، وكثيرا ما كان يفتش في صندوق القمامة مستفسرا عن النفايات ومعنفا الشغالين على بعض الفضلات، وبالطبع لا أسلم أنا من تلميح أو عتاب، هذا إضافة إلى جدول عقاقيره المزدحم، وبالطبع كان أكثر ما يؤلمني عدم تلبية احتياجاتي كمرأة، وعدم إشباع رغباتي كأنثى، أدركت أنني مجرد ديكور يزدان به برواز صورته في المحافل المختلفة، اتخذت قراري بالانفصال بعد مشاهدة فيلم "محامي خلع"، واستردیت حريتي مرة أخرى خيفة ألا أراعي حدود الله.

تذكرت ليالينا الدافئة أنا ونادر، ووجدت دموعي تنهمر من مقلتيّ أسفا وندما على العمر الذي ضاع.

اتجهت إلى دولاب ملابسي، وبدأت أمزق فساتيني السواريه التي حرمتني حبيبي ومعشوقي، وكانت دموعي تنهال فيضا كلما تذكرت أيامي وحياتي معه، نادر، الطيب الحنون، العفيف المستقيم، الشهم الكريم، الجذاب الوسيم، ظننت أنني ربما أستطيع استجداءه واسترجاعه، ولكن تبددت ظنوني حين وقفت أمام مرآتي التي تحتل نصف جدار حجرة نومي، لأدرك أنني لم أتخلص من جميع فساتيني السواريه، حيث اكتشفت أنني نفسي لم أكن لدى الأزواج الثلاثة إلا... وردة في عروة الجاكيت، ببيون في ياقة

قميص، دبوسًا لكرافتة أحدهم، لم أمثل لديهم إلا فستانًا يتجملون به في محافلهم، فستانًا يلفت الأنظار... فستانًا سواريه.

البردعة.. واللجام

عقب تخرجي في كلية التجارة، ساقتني دعوات أمي للالتحاق بالعمل في مصنع نسيج صغير بوسط البلد، ولم يمضِ وقت طويل إلا وأوكل إليّ صاحب المصنع جميع المهام الإدارية، وقد قادتني كرامات أمي وتطبيقاتي العملية إلى تحقيق فائض مجزٍ وتقليل الهالك، حيث كان كل عامل يتقاضي مقابل ما يتم إنتاجه من قطع، وكانت أجور القطع تتباين بين صدور، وظهور، وأكمام، وكثيرا ما يوجد فائض في إحدى المفردات على حساب الأخرى، أو تباين في مقاسات الصدور والظهور، ما يزيد من حجم الهالك، وقد أصدرت قرارًا باستلام القطعة كاملة متكاملة، وعلى العاملين التنسيق فيما بينهم وإنتاج وحدة صحيحة، وفي غضون أسابيع تم التخلص من الهالك بالكامل.

لاحظت أيضا أن العامل يتقاضي أجره مسبقا عن طريق السلف، ثم يختفي بعض الأيام، ويظهر مرة أخرى بعد نفاد ما معه من نقود. تم إصدار قرار بتوقيف نظام السلف، على أن يكون الأجر أسبوعيًا طبقا لما تم توريده إلى المخزن من منتج كامل الأوصاف، كما أصدرت قرارًا بانتهاء يوم العمل الساعة الخامسة

بعد أن كان يمتد إلى ساعات متأخرة من الليل، وتمتد معه فاتورة الكهرباء. حرصت أيضا على تنظيم رحلة شهرية تضم جميع العاملين ويُستثنى أكثر العاملين إنتاجا من دفع الاشتراك، وتتصدر صورته لوحة شرف مثبتة في المدخل تحمل اسم رجل كل شهر.

كان لنجاحي أثره الطيب في نفس صاحب المصنع، ما جعله يستعين بي في مصنعه الكبير، حيث كان لقائي بمديرة المصنع، ابنته الوحيدة الشابة التي رحبت بتعميم التجربة، وعلمتُ فيما بعد أنها إحدى خريجات الجامعة الأمريكية، تناوبت اللقاءات وتعددت الحوارات وتبادلت الزيارات، واتفقنا على تنظيم رحلة تضم جميع العاملين بالمصنعين. هالتني خفة روحها وأدهشني تواضعها ومشاركتها العاملين في مسابقة شد الحبل وسباق الحجلة، العدو برجل واحدة... أصبحنا صديقين إلى حد كبير، وأصبحت مكالمتنا التليفونية ناموسًا نلتزم بوجوبه بشكل يومي.

جاءت فرحتي عميقة حين استقبلت دعوتها إلى حفل عيد ميلادها بمنزلها الفاخر، وجاءت دهشتي أعمق حين شعرت أنني أراها للمرة الأولى، ملاك يرتدي رداء غاية في الأناقة، ووجه يحمل ملامح حور العين، وقوام ممشوق تغار منه وعليه الظباء

والغزلان، كما كانت حرارة استقبالها وأبويها محل غبطة، وترياق فيه شفاء للنفس وراحة للفؤاد.

بعد فترة تردد طويلة، والقيام بأكثر من بروفة لسيناريو طلب يدها، تجاسرت وصارحتها بمشاعري، وجاني الرد جاني.. ولقيتها بتستتاني.. تبادل النسيم حروف كلماتها، وشَدَت الطيور فرحًا بها، وتمايلت الأشجار رقصا لها، وزغرد الفؤاد لموافقتها... ورغم أنني عريس لُقطة، مستقيم، غير مدخن، أتمتع بقدر من الجاذبية رغم تواضع وسامتي، لدي شقه متواضعة الحجم في أحد الأحياء الراقية، رغم كل ذلك أراها عروسًا أكثر من لُقطة، لا بد من قراءة المعوذتين أكثر من مرة رَدْءًا للحسد وتجنبًا لعيون الحاقدين، جمال، أناقة، حسب ونسب، خُلُق وخِلْقة، خفة ودلال.

تم عقد القران في حفل من إخراج حرمنا المصون، ونبدأ رحلة السعادة، فنحن دائما متفاهمين متحابين، ولأنني فلاح شرقاوي رفضت تماما من اليوم الأول مساهمتها في مصاريف المنزل، وكنت أنا دوما المتكفل بكل شيء، حتى مصروفاتها الخاصة وصيانة سيارتها كنت أنا المتكفل بها، ظلت الحال على ما هي عليه، تفاهم، مودة، سعادة، واكتملت سعادتنا باستقبال مولودنا الذي ظل وحيدا، إذ إنها قررت عدم تكرار خوض التجربة القاسية.

بعد سنوات وسنوات، فوجئت بها ذات يوم تصطحبني إلى فيلا تحت التشطيب، مفيدة أنها اشترتها، وأن علينا تشطيبها، ومن ثم الانتقال إليها... بالفعل تم افتتاح مسكننا الجديد، مع الاحتفاظ بعشنا القديم بغية استخدامه كمخزن لملابسها وأدواتها التي لا تنتهي، أو احتمالية الحاجة إليها والاستعانة بها مستقبلا في حال زواج الفلذة الوحيدة...

أصارحكم بالأمر، بدأت أشعر بغصة في نفسي، خصوصًا حين أتسلم إيصال المياه أو الكهرباء معنونا باسمها، أو فاتورة الغاز التي تحمل توقيعها، ربما تؤصل هذا الإحساس جذوري الريفية، وربما الغيرة، ولم لا؟ فنحن بشر، والكمال لله وحده.

تفاقم هذا الشعور حين ابتاعت محلا، وخصصت له الجزء المتبقي من وقتها، وأصبحت مضطرا للاستعانة بالديلفري الذي أصبح اسمي وعنوانها يتصدر جميع أجهزة كمبيوتر المطاعم المحيطة، كما أصبحت مضطرا لتخصيص بعض الوقت لإدارة المنزل ومراعاة احتياجات ولدنا الحبيب.

جاءت الطامة الكبرى حين سافر ولدنا العزيز للالتحاق بالعمل في إحدى البلدان العربية، ويمحو سفره ختم انتسابي لهذا المنزل،

ويتضخم داخلي إحساس بالغربة، وأجدني ألجأ من حين لآخر إلى عشي القديم لقضاء الليلة أو بعض الليلة، وتتطور الأمور بإقامة شبه دائمة تنتهي بقضاء ليلة أو نصف ليلة بغربتي بالفيلا.

رويدا رويدا، صارت مكالمات التليفون هي السبيل الوحيد لتلاقينا أو عند حضور احتفالية ما تلبية لدعوة أحد الأقارب أو الأصدقاء، أو حين أمرض أو تمر هي بمحنة... جعلتني وحدتي أتدبر الأمر، هل قادتني شهامتي إلى أن أكون حمارًا يمتطى، هل أهدى جودي وكرمي اللجام إلى زوجتي تسوقني به كيف تشاء؟

هل ينتهي أمرنا بالطلاق رغم أنها لم تشر إليه يوما؟ وهل أقدم أنا على هذه الخطوة رغم أنها ما زالت محبوبتي الجميلة؟

هل أدق بابها شوقا إليها واشتياقا إلى اللجام؟ أم تعود هي إلى عش الزوجية لتنفض عني غبار البردعة؟

النيل... شريان ووريد

فوق سطح منزلنا المتقادم الذي يطل على نهر النيل الخالد، تجمع أهالي وكالة البلح وجيرانها من ساكني بولاق أبو العلا، في تظاهرة احتفالية، مهنئين بتخرجي في معهد الخدمة الاجتماعية بعد طووول عناء، ورغم صيتي وفَتْونَتي فإن للدراسة وأسئلة الامتحانات معايير أخرى. أخيرا أنهيت دراستي وحصلت على شهادة عليا، وحان موعد سداد ضريبة حب الوطن، فتقدمت إلى منطقة التجنيد، وارتديت لباس العسكرية. ظللت في مركز التوزيع حتى تم إلحاقي ضمن مجموعة من المجندين الذين يتمتعون بأبنية جسمانية قوية إلى سلاح الصاعقة، وتم شحننا ومخالينا إلى أنشاص، مركز تدريب الأبطال. لفت نظري أحدهم يَشِمُ الصليبَ على يده، وآخر بشعر مسبسب، تختبئ خلف عنقه، سلسلة ذهبية، ويضم معصمه حظاظة تلازم ساعة يده.

بدأنا فرقة الصاعقة، مع حرصي على تجنب كل منهما، وإن رصدت حرصهما أيضا على اجتنابي، ورغم اختفاء الشعر المسبسب ومظاهر الرفاهية والخنفسة، فإن الرجل أبلى بلاء حسنا في جميع التدريبات وقوة التحمل، وإن ظل في عزلته شبه التامة

عن باقي الزملاء، حتى وجباته وأطعمته كان يستمد معظمها من كانتين المعسكر، المدهش في الأمر أن يضمني وإياهما كشف إلحاق بعد تجاوز الفرقة، ونتجه معا إلى الإسماعيلية لنباشر مهام الدفاع عن أرض وكرامة الوطن.

بعد أسابيع تم تكليفنا بمهمة انتحارية بأرض الفيروز، وتم تقسيمنا إلى مجموعتين، مجموعة تضمني والوشم، ومجموعة أخرى تضم الخنفس السابق، وبعد سعي استطعت مبادلة أحدهم لأنضم إلى أنقاض الشعر المسبسب خيرا من الجهاد مع رجل يقر أن المسيح ابن الله... ورغم تعدد الجيران والأصدقاء من الإخوة المسيحيين، فإن للجهاد حسابات أخرى.

كان من المفترض قيام كل مجموعة بتفجير مخزن سلاح يتبع جماعات الإرهاب، ثم تلتقي المجموعتان لمداهمة غرفة عمليات تضم بعض قادتهم، بدأنا بالفعل وأنجزنا المهمة الأولى بنجاح، والتقت المجموعتان طبقا لما هو مخطط، بدأت المجموعة الأولى في المداهمة، فوجئنا بوابل من الطلقات، ودانة آر بي جي التهمت السيارة الأولى، لتتبعها دانة أخرى تسلبنا وسيلة المواصلات وتعزلنا بالقضاء على العربة الأخرى التي كانت تضم أجهزة الاتصال، ورغم صدمة المفاجأة واستشهاد جميع أفراد

المجموعة الأولى، فإن سرعة رد فعل الشعر المسبسب أدهشتني، كما أبهرتني قدرته على قذف قنبلة يدوية لتسبح في الفضاء لما يقارب ثمانين مترا وتستقر داخل غرفة العمليات، وعلمت فيما بعد أنه كان ضمن فريق رمي القرص في أحد النوادي، وكثيرا ما تدرب على ذلك، ولم تمض ثوان إلا وانطلق إلى الموقع لمواجهة منصات الآر بي جي المحيطة بالموقع، وأشهد أنه كان أولنا وصولا للموقع، وكيف لا وقد علمت تمرسه على سباقات العدو والمشاركة في أكثر من ماراثون دولي؟

كنت التالي في الوصول إلى الموقع، وبعد تبادل إطلاق النيران، تمت السيطرة، وتم القضاء على جميع الإرهابيين، وكانت الخسائر فادحة، حيث استشهدت المجموعة الأولى بالكامل، كما استشهد ثلاثة آخرون عند الاقتحام وقد أصبت، وأحدنا، إصابات متباينة، وأصبح الثلاثة الناجون أمام مهمة شاقة، مهمة إسعافنا، ومهمة العودة بنا إلى الحضر عبر طلاسم صحراء سيناء المبهمة. فوجئت بذي الشعر المسبسب والسلسلة المذهبة ينزع كُمّي قميصه، ويقوم بشد وثاق ساقي، ويد زميلي المصاب، لفت نظري ربطه لجرحي من أعلى، وجرح زميلي من أسفل، وباستفساري أفاد أنه سبق وتلقى فرقة إسعافات أولية، ويعلم أن الجرح الشرياني يربط أعلاه لمنع النزيف، أما الوريدي يربط أسفله، رغم إصابتي

وآلامي فإن فضولي قادني إلى التساؤل عن كيفية التمييز بين النزيف الشرياني والوريدي، الشرياني لونه أحمر ويتدفق بكم أغزر وشكل انسيابي، أما الوريدي فلونه داكن ويكون بطيئًا وتلمس فيه حركة النبض، جاءت إجابة البطل في أثناء خلعه لحزامه وقام بتثبيت يد الزميل إلى عنقه، ثم استل قطعة خشبية وقام بتثبيتها بساقي بواسطة رباط حذاء أحد الشهداء الأبطال، ووجدته يخلع ملابس الضحايا ويربط بعضها ببعض ليصنع منها بساطا يتم حملي عليه، لم يفت البطل قيامه بتجميع أبطالنا، وجميع جثامين الإرهاب داخل المغارة، ثم قام بنسف سطح المغارة حرصا على دفن الجميع، بدأنا التأهب لرحلة العودة مدعمين بالبوصلة التي ترافقنا، مع حرص العلامة على تخفيف الرباط كل عشرين دقيقة ضمانا لتغذية الأطراف بالدماء، ثم يقوم بشد الوثاق مرة أخرى.

كانت الشمس على وشك الأفول، وبدأنا السير، لم يمض وقت طويل إلا وشق الليل طريقه إلى أفق السماء وبزغت النجوم وظهر القمر، وفجأة استوقفنا البطل مشيرا إلى أننا نسير في الاتجاه الخاطئ، حيث تفيد معلوماته الكشفية بأن مجموعة نجوم الدب الأكبر تشير إلى اتجاه الشمال، واختلف الجمع على اتجاه السير، ووجدتني أصيح مصرحا بأنني معه في أي قرار، فربما تكون البوصلة قد لحقتها إصابة ضمن المصابين أو طالتها إحدى

الشظايا التي أربكت اتجاهاتها، والغريب والمدهش اجتماعنا جميعا على نفس الرأي.

بعد يوم ونيف، فاجأنا أحدهم أن تليفونه المحمول رصد شبكة اتصالات مصرية، واستطاع إرسال رسالة استغاثة، علق البطل، أدركت الآن كيف شعر الإرهابيون باقترابنا، فقد رصدت أجهزتهم ذبذبات محمولنا الميمون، وصدرت تعليمات بعد ذلك بحظر اصطحاب المحمول في أثناء العمليات والمهام العسكرية.

ظللت بالمشفى أيامًا طويلة، وكان البطل المارد العلامة دائم الاطمئنان عليّ، وأخيرا أفرج الأطباء عني، واصطحبني البطل في سيارته الفارهة إلى منزلي حيث استكمل العلاج، وأفادني بأنه يقطن بالجانب الآخر، حيث يطل منزله على نيل حي الزمالك المواجه لمنزلي، ظل الرجل حريصا على زيارتي في أثناء إجازاته المتباعدة، وإن اتسمت زياراته بقصر مدتها، إذ إنه دائما في عجلة من أمره، وذات يوم حضرني زائرا، وكنت قد أتممت الشفاء، واستأذنت مصاحبته في الخروج، إذ إنني أتوق شوقا لميادين القاهرة وزحمة شوارعها، رحب الرجل واصطحبني لزيارة عشر عائلات تحمل عناوين شهدائنا الأبرار، وفي العنوان الحادي عشر وجدته مستفيضا بغير عجلة، وجدته صديقًا مرحبًا به، يعلم أسماء

جميع أفراد الأسرة ويطمئن على أحوالهم، وإذا بسيدة في العقد السادس من عمرها تهل علينا وتضمه وتحتضن دموعها وجهه، بعد برهة جذبني نحوها: اسمح لي أعرفك بأمي، وأم الشهيد جرجس.

لم أتمالك نفسي، ارتميت في أحضانها وعانقت دموعي دموعها. اعتدت ملازمته في هذه الجولة كل إجازة، آاااه كم كنت أشعر بضآلة تسري في كل جزيئات بدني كلما تذكرت نظرتي إليهما، وحكمي على الوشم، والشعر المسبسب، وتعلمت درسا قاسيا، حتما سأحرص على تلقينه أولادي وأحفادي، إياك والحكم بالمظاهر، إياك والعنصرية والتعصب الديني، فكلنا من خلق الله، وحساب العباد من شأنه وحده، سبحانه.

في إحدى زياراتي للبطل، وقفت في شرفة منزله مازحا، إن منزلي خير من منزله، فأنا أطل على منظر جميل يضم حي الزمالك، في حين أنه يطل على منزلي المتهالك، وبقدر هزلي في مزاحي، جاء رده بليغا عميقا، ليس مهما الاستمتاع بما يواجهك من حسن المنظر، الأهم شعورك وإحساسك بالراحة والرضا حين تنظر داخل نفسك، ولا تنس أنني وأنت نطل على نفس النيل ونشرب نفس المياه... يا عزيزي كما أن الإنسان لحم ودم، شريان ووريد، فكذلك

نهرنا العظيم، إذا كانت بولاق أبو العلا شريانه، فحي الزمالك يمثل الوريد، وإذا مَثَّلْنا نحن شريان الأمة، فجرجس وإخوانه وريدها، واعلم صديقي أن حياتهم لا تستقيم دونك، وأن حياتك لا معنى لها دونهم، فنحن وهم يربطنا حبل سري لا يفنى إلا إذا انقطع الشريان، أو توارى الوريد، نحن وهم ضفتا النيل، لا ننفصل أبدًا، إلا إذا نضبت مياه النيل.

برسيم للخرفان

بناء على دعوة زوجتي الحبيبة إلى جلسة ثرثرة، توجهت معها طواعية إلى حجرة المعيشه لأستقبل نصيبي اليومي من شكواها، وأعلم مسبقا حصة كل مجال من هذا النصيب، بدءا من مشكلات العمل، ومرورا بمشكلات المكوجي والبواب والسوبر ماركت، وانتهاء بمشكلات دراسة آخر العنقود التي لا تنتهي، وإن ظلت مشكلتها الأساسية تكمن في حواري معها، إذ إنني ولدت بعيب خلقي فطري تشتاط منه المرأة غيظا، فقد خلقني الله قليل الكلام، وإن حباني نعمة الإنصات، فأنا مستمع جيد جدا، أوقر كلام المتحدث وأهضم تفاصيل حديثه، لذا كان من الغريب تخصيص حصة من الثرثرة والشكوى حول ميول ولدي البكري وانشغاله الدائم بقضية خالد سعيد ومتابعته لجماعة "كفاية" ومواقف أعضائها من توريث الحكم، وأن وراء هذا التغير مجموعة من الأصدقاء يحاولون استقطاب أكبر عدد ممكن ليكتمل عدد المشاركين لصفحة كلنا خالد سعيد رقم المليون، رغم دهشتي وانشغالي جاء تعليقي: يا ستي، سيبيهم، خليهم يتسلوا...

اندهشت مرة أخرى حين وجدت رئيسنا المبارك يردد نفس العبارة في مؤتمر صحفي، ظننت في بادئ الأمر أن هناك كاميرات تم زرعها في منزلي ترصد جميع الأحاديث والحوارات، أو أن زوجتي تعمل مع النظام وتنقل له ما يدور بيننا، أخيرا أيقنت أنه ربما يكون توارد في الأفكار والتسالي.

لم تمض أيام إلا وهَلّ علينا يوم ٢٥ يناير، عيد الشرطة، لتتاح لي فرصة تجمعني مع أسرتى الصغيرة في يوم عطلة رسمية، وأفاجأ باستيقاظ ابني البكري على غير عادته مبكرا، إذ عودنا على قضاء يوم عطلته في سبات عميق، تعويضا عن أيام الشقاء والعمل المضني، بل والغريب تأهبه للخروج، وأفاد بأنه على موعد للقاء بعض الأصدقاء، واسترعى انتباهي لافتة مضمومة بيده، وعند فتحها وجدت مخطوطًا يحمل عبارة "لا للتوريث" وصارحني أنه بصدد المشاركة في تظاهرة سلمية يتم الإعداد لها في فناء دار القضاء العالي، ولم يمهلني حق الاعتراض، فقد أفادني بأنه تلبية لمخاوفي قد سبق وعدل عن المشاركة في تظاهرة "كلنا خالد سعيد" التي قادها دكتورنا النوبلي الدكتور البرادعي، واليوم يرجوني عدم إثارة الأمر، مُلمّحًا إلى حسم أمره.

لم يُتَح لي إلا الانصياع للأمر الواقع شريطة طمأنتي عليه تليفونيا كل ساعة، مع وعد بالعودة إذا حدث أي عنف أو حماقة مع أجهزة الأمن المركزي، لم أستمتع بفطوري ولا بعطلة يومي الذي قضيته تارة مع ساعة يدي، وأخرى تلصصًا على عقارب الساعة المثبتة على حائط حجرتي... كانت آخر مكالمات فلذة كبدي نحو الثانية عشرة ظهرا، وأفاد بأنه قد اتجه مع جمع كبير إلى ميدان التحرير، وهم في تزايد مستمر، وللأسف تم عزل المحمول بعد توقيف شبكاته الثلاث، ثم سربت قناة الجزيرة عن تتابع التظاهرات في أكثر من محافظة، ووقوع ثلاثة قتلى بالسويس، لم أتمالك نفسي، واتجهت إلى ميدان التحرير في رحلة الاطمئنان على ولدي.

انقبض قلبي حين وجدت ميدان التحرير يختبئ تحت سحابات كثيفة من الدخان، ووجدته يعج بكتل بشرية متعطشة لنسيم الحرية وتعلن تمردها، وتقر اعتراضها على فساد المجتمع والنظام... وفي المقابل، هناك قوات من الأمن المركزي والقوات الخاصة تتربص للإطاحة بالخونة من أعداء البلاد وعملاء الجاسوسية... ظللت أبحث عن ولدي متفحصا الوجوه مع كل حالة من حالات الكر والفر، وللأسف لم أهتدِ إليه، وقبل انتصاف الليلة، فوجئت بمكالمة تليفونية من ابني وحبيبي حين أفرجت الحكومة عن

شبكات المحمول، واستطعت تحديد مكانه بجوار مسجد عمر مكرم، توصلت إليه بصعوبة واصطحبته إلى المنزل بعد يوم عطلة كئيب.

استطاع الشباب بفضل تكنولوجيا الكمبيوتر التجمع مرة أخرى في اليوم التالي، وظل ميدان التحرير هو قبلة ثوار القاهرة، وتواصلت تظاهرات الغضب في جميع محافظات الجمهورية، وباتت كفة الكر والفر تميل نحو المتظاهرين، خصوصا في محافظتي السويس والإسكندرية، وتم حرق أكثر من قسم شرطة، وكذلك مقرات الحزب الوطني وعلى رأسها المقر الرئيسي الذي لم تشفع مجاورته لنهر النيل في محاصرة الحريق.

ظلت الأحداث على منوالها من الشد والجذب، وتضاعفت أعداد المتظاهرين، هاتفين بإسقاط النظام، وأن تونس هي الحل، كان ابني مشاركا في جميع التظاهرات، شريطة العودة والمبيت بالمنزل كل ليلة، خرج المصلون عقب صلاة الجمعة في تظاهرات تضم الآلاف منددين بفساد النظام ومطالبين بإسقاطه، حرصت على مصاحبة ابني وتوجهت معه إلى التحرير، واتخذنا من حديقة مسجد عمر مكرم محل إقامة، تضمنا صحبة من المعارف والأصدقاء، ورغم برودة الجو فإن حماسة الهتافات وتشنج

الحناجر ومشاعر الغضب كانت كفيلة بصبغ صقيع يناير بدفء وحرارة سبتمبر، ظللت أرافق ابني بالميدان، ربما من باب الوطنية، أو خوفا عليه، أو ربما ردا على اتهاماته لجيلنا بالجبن والاستكانة، وإن كان نصر أكتوبر يعد أبلغ رد وخير دليل على جسارة جيلنا الذي خاض معارك ما زالت تمثل أحداثها القدر الأكبر من مناهج معظم، بل جميع، الأكاديميات العسكرية.

استرعت انتباهي تحركات الجموع كل حين، والمنصات سابقة التجهيز، والهتافات المعدة بعناية في ظل تسريبات أمريكية عن حجم ثروة مبارك، شعرت بأنني في مسرح كبيييير، بعضهم ينشد أغاني نجم والشيخ إمام، وآخرون يلقون الأشعار والأزجال، وبعضهم يرسمون لوحات تضاهي فنون مون مارت بباريس... حتى الإسكتشات لم يسلم المسرح منها، وعلى مقربة مني كان أحدهم يسرد حكايات هزلية بصوت ونكهة السادات... قضينا الليلة وامتلأ الميدان بخيرة الشباب المصري والصفوة من خريجي الجامعات الأجنبية، وبات الميدان محاطا بقوات الجيش، بعد أن أصبحت أيادي الشرطة مغلولة لا تطال الأمن ولا توفر الأمان، خصوصا بعد اقتحام السجون، وعلى رأسها سجن وادي النطرون الذي تم اقتحامه وتحرير قيادات الإخوان المسلمين الذين تم

اعتقالهم في أعقاب الثورة، وعلى رأسهم فضيلة المرشد ومحمد مرسي.

ظل الجمع بالتحرير في انتظار خطاب مبارك الذي جاء مستفزا ومخيبا للآمال، حيث تم تعيين رجل المخابرات عمر سليمان نائبا للرئيس، وجيء بالفريق شفيق على رأس الحكومة، زادت الاحتجاجات وعلت الهتافات وأصبح سقوط مبارك مطلبًا أساسيًا، وقرر المتظاهرون الاتجاه إلى القصر الجمهوري لخلع مبارك، مرددين هاتفين "صلاة العصر.. من جوه القصر".

لم أستطع ترك الميدان حبا لابني وعشقا للوطن، وشعرت أن مغادرتي للميدان تعد خيانة للأهل والبلد، فقد بات حلم التخلص من عفن فساد هذه الحقبة قريبا دانيا. زادت تسريبات الوكالات العالمية ولعبت الجزيرة دورا هاما في تغطية أحداث الثورة المصرية قبل إغلاق مقرها، واضطرارها للبث من مكان آخر بشكل غير شرعي، تم ذلك كله في ظل تهليلات ومؤازرات حكومات الفرنجة وإشادة بالثوار ودعم للثورة المصرية، ما جعل مبارك يلقي خطابًا آخر يستعطف به الجماهير، ويقر عدم ترشحه مرة أخرى، نافيا توريثه الحكم.

اصطحبت ابني إلى المنزل، فلا ضرر من إمهال الرجل بعض الشهور، في سبيل المحافظة على كيان الدولة وإقرار الأمن والأمان اللذين صارا هدفًا يسعى له كل المصريون، لما عانوه من عصابات النهب والسلب إبان الثورة المباركة.

فوجئنا في اليوم التالي بأحداث موقعة الجمل المريبة التي أثارت غضب حزب الكنبة قبل غضب الثوار، ما ضاعف الأعداد المهاجرة إلى ميدان التحرير، مصرين على عدم العودة إلا بعد خلع الطاغية، وبالفعل ينتهي هذا الفصل من المسرحية بتنحي مبارك وتولي المجلس العسكري حكم مصر.

ظننت أن المسرحية قد انتهت، وأن الستار تم إسداله، إلا أننا فوجئنا بتطورات متلاحقة انتهت بعدول الإخوان عن عدم الترشح للرئاسة، وفوز مرسي بسباق الانتخابات في منافسه وهمية... بعد عام من اعتلاء مرسي والإخوان حكم مصر، بات جليا وجود مخرج تفوق قدراته عبقرية يوسف شاهين يقوم بتوزيع الأدوار وتحريك الجموع، مع توفير الموسيقى التصويرية المناسبة، مخرج عالمي أمريكي استعان بالملايين من الكومبارس المصريين، وأسند إليهم دور البطولة في مسرحية ثورة ٢٥ يناير الوهمية. لم يحزنني بهدلتي وابني وملايين غيري من خيرة شباب مصر، لم يحزنني

مصابون بالمئات يحملون نسب عجز متابينة، لم يحزنني مئات الشهداء الذين لم يموتوا، بل هم أحياء عند ربهم يرزقون، لم يحزنني كل ذاك بقدر ما أحزنني يقيني أنني وغيري من الملايين لم نكن سوى وليمه للإخوان المتأسلمين، لم نكن سوى... حزمة برسيم للخرفان.

بعد حكم البراءة لمبارك وجميع أعوانه، أخشى أن تكون مسرحيتي المقبلة بدلا من "برسيم للخرفان" نكتب "سيمون فيمييه" للسادة الحيتان.

أطفال المساخيط

بدأت مشوارى المهني القصير حين رشحني ودعمني أحد أساتذتي بكلية الإعلام، لألتحق بإحدى الجرائد الرائدة كصحفي تحت التمرين، إذ إنني في السنة النهائية في قسم الصحافة، ورغم حداثة سني وتجاربي المحدودة فإنني تقدمت بسلسلة مقالات تخص ظاهرة الزواج العرفي في الجامعات المصرية، مدعمة بأرقام ونسب وتجارب تحمل الحروف الأولى لأبطالها. لم يكن الأمر شاقًا، فأنا أعيش بينهم أنا وخطيبتي التي تزاملني، ونعايش مشكلاتهم الاجتماعية والكبتية. بعد ذلك تقدمت بسبق صحفي أودى بفطاحل من تجار العملة وغاسلي الأموال إلى نيابة الأموال العامة، مسترشدا بأحد الزملاء الذي يتاجر والده في العملة ويسعى للتخلص من منافسيه بسوق العملة.

جاءت الفرصة الذهبية حين اجتمع معنا السيد رئيس التحرير، وكنت من الواقفين في الصفوف الأخيرة، ليتناول ظاهرة "خُط الصعيد" الجديد، الشهير بـ"وحيد القرن" نسبة إلى أنه وحيدُ قرنِهِ، وأيضا لأنه كان يستطيع مناطحة ثور أهوج، وكانت صدمة من دماغه الفولاذية كفيلة بنقل الضحية إلى أحضان الموتى،

والمدهش تعدد ضحاياه من رجال الشرطة والحكومة وأغراب المدينة، وإن كان لم يمس السياح بأي سوء.

توجهت على الفور إلى أسيوط، مصرا على إنجاز المهمة وواعدا خطيبتي بالإتيان بالديب من ذيله، وكان لا بد من وسيلة لصعود الجبل ولقاء وحيد زمانه وقرنه، ولكن كيف والمطاريد يتربصون بكل من يحوم حول الجبل؟ وأخيرا اهتديت إلى فكرة موحاة من تقاليد الصعيد، فقد حملت كفني على يدي وتوجهت إلى الجبل ناشدا لقاء وحيد القرن، ورغم خطورة المجازفة فإن الكفن كان المفتاح السحري الذي فتح أبواب كهوف ومغارات الجبل، وبعد مشقة استغرقت بضع ساعات وجدتني واقفا وجها لوجه أمام المارد الذي بادرني بالتهديد بإنهاء حياتي، إذا كنت أنتسب إلى الشرطة أو الحكومة.

اندهش الرجل لشجاعتي وصراحتي حين أفضيت إليه بأنني صحفي تحت التمرين، وأن لقاءه يعني لي الحياة، إذ سيصير حلم تعييني بالجريدة متاحا، وسيكون أجل زواجي بخطيبتي قريبًا. أعجب الرجل بجسارتي وحيلتي وأمر بإعداد العشاء بعد أن بات أفول الشمس دانيا، استجابت شهامة الرجل إلى توسلاتي بالتقاط بعض التصاوير التي ترصد ليلة كاملة في كنف الوحيد، بدءا من

العشاء ومرورا ببعض البوزات وانتهاء بصور سيلفي تجعل مني عضوا أساسيا في أرشيف الجريدة، وعلمت من الرجل أن المسألة تعد أخذا بالثأر، إذ قامت الشرطة بقتل ولده بالخطأ في أثناء مداهمة خلايا إرهابية تصادف وجود ولده في مكانها، وبدلا من الاعتراف بالخطأ ومجازاة المخطئ، أقر العمدة ورجالات الحكومة في المحضر بأن ابنه إرهابي ضمن الخلايا النائمة وتم القضاء عليه.

بعد إنجاز المهمة وفتح عكا، تلقيت مكالمة من رئيس التحرير مهنئا بهذا السبق الذي عجز عنه جهابذة الصحافة المحلية أو العالمية، ووعدني بإنهاء إجراءات التعيين ومكافأة لم أحلم بها، كما أمرني بإرسال الحوار والصور مع أحد الزملاء، والاتجاه فورا إلى الأقصر للبحث في تسريبات تفيد بانتشار ظاهرة تهريب أطفال المساخيط بعد تقطيعها، وقد خصني بميزانية مفتوحة من أجل إنجاز هذا السبق. على الفور توجهت إلى الأقصر منتشيا بنجاحاتي السابقة، وقد قضيت ليلتي في متابعة كل ما كتب عن ظاهرة خطف الأطفال والمتاجرة بأعضائهم، كما قمت بدراسة جميع القضايا التي تخص هذا الموضوع محليا أو عالميا، واستطعت الإلمام بتاريخ زرع الأعضاء وبدايات سرقات الأعضاء البشرية التي تنفرد بها شعوب العالم الثالث، ورغم احتكار الصين

لعمليات الزرع نظرا لتوافر الأعضاء، حيث تبيح الحكومة أعضاء المحكوم عليهم بالإعدام وتؤول جثامينهم إلى الدولة، فإن هناك عصابات ومافيا أوروبية تعمل في هذا المجال.

كانت بدايات بحثي من داخل مستشفى الأقصر العام، حيث مكثت أربع ليال بحجة إجراء أشعة وتحاليل لأعراض وهمية، انتهت بتحويلي إلى اختصاصي نفسي، إذ لا توجد مشكلات عضوية. في أثناء هذه الفترة كونت صداقات وأجريت حوارات مع معظم هيئات التمريض، كما حاولت استنفار أكثر من جراح لإثارة موضوع زرع الأعضاء، وللأسف لم أهتد لأي خيوط تمكنني من المتابعة.

فكرت في وسيلة أخرى وتقربت إلى المشعوذين ورجال البر، الإسلامي منهم والمسيحي، بحجة أن أختي الثرية التي حرمها الله نعمة الإنجاب تتمنى تبني طفل مقابل مبلغ مالي كبير، وتارة أفيد بأنها مسلمة تتقي الله، وأخرى أدعي أنها مقدسة زارها البطل في منامها، وأرشدها إلى هذا المكان بالأقصر.

للأسف لم تُجدِ هذه الحيلة، فاتجهت إلى نقطة الشرطة لأتقدم ببلاغ وهمي عن فقد بعض المقتنيات، وفي فترة وجيزة استطعت

أن أجري حديثا وديا عفويا مع الشاويش النوبتجي بفضل السجائر وإهدائه القلم الذي خط به محضر فقد مقنياتي، وكان المدهش قدوم أحدهم مصادفة للإبلاغ عن فقدان ولده الذي كان يصاحب "الواد المسخوط" ابن جمعة، وقد اختفيا منذ الصباح ولا أثر لهم، آاااااااه، أخيرا وجدنا الخيط الذي نسير خلفه ونقتفي أثره، واعدت الشاويش بدعوته على الغداء في اليوم التالي حتى أستطيع الاستفسار عن تفاصيل الموضوع، وللأسف أفادني بأنه تم العثور على الطفل وعودته وابن جمعة، كل إلى داره، ووعدت الشاويش بمكافأة مجزية إذا دلني على طفل تتبناه أختي المسكينة، وجاء رده حاسما حازما، قال: يا بني لا يوجد صعيدي يفرط في ولده ولا يسمح لغيره بتربية بذوره، كما لا يجرؤ صعيدي على التعرض لأي طفل، فالسيدات والأطفال عورة لا يليق بأي صعيدي التعرض لهم.

كانت عبارات الشاويش بمثابة خط نهاية لما أقوم به من بحث، وأصبحت على يقين أن التسريبات إما إشاعات، وإما أنها أخطأت العنوان، وعليه قررت العودة إلى القاهرة وإنهاء البحث.

استيقظت من نومي بعد ساعات نوم طويلة تنفض عني مشقة رحلة استتغرقت نحو اثنتي عشرة ساعة، وتنفض عن مسامعي

ضوضاء قطار الصعيد، وإن لم يفتني تسليم تفاصيل بحثي إلى الجريدة قبل اتجاهي إلى منزلي وانفرادي بحجرة نومي التي كنت أشتاق إليها كثيرا، وكما خلدت للنوم مشتاقا استيقظت أكثر شوقا لملاقاة حبيبتي وخطيبتي التي أتت لمصاحبتي إلى الجريدة، لتكون الشاهد الأول على التحاقي رسميا بصاحبة السعادة. اتجهنا إلى الجريدة وجاءت المفاجأة المفجعة، فرئيس التحرير يرفض مقابلتي، والسكرتارية تسلمني خطابًا يفيد بإنهاء انتسابي للجريدة. بعد فترة ذهول تبعتها فترة هياج تسربت آثارها إلى مسامع السيد رئيس التحرير، استدعاني سيادته إلى مكتبه، وقبل أن تنبس شفتاي بكلمة، بادرني بالسؤال: ماذا تعرف عن أطفال المساخيط؟

ودون إمهالي فرصة الرد، واجهني بمانشيت جريدة منافسة تعكس صور تماثيل فرعونية صغيره، وأفاد: يا محترم المساخيط هي تماثيلنا الفرعونية، والتماثيل الصغيرة يطلقون عليها أطفال المساخيط، وهناك عصابات تقوم بتقطيعها لتسهيل تهريبها، ويتم تجميعها بعد ذلك خارج البلاد.

واستطرد: أحب أقول لسيادتك إنني محول للتحقيق بسببك، وأكثر من ذلك أنني محول لنيابة الأموال العامة، لأنني متهم بإهدار المال العام، ولولا أنك تحت التمرين كان زمان جنابك مشرف في

آراميدان أو مستشفى المجانين... فكيف يتصور عاقل أن تبدد كل هذه الأموال من أجل طفل آدمي؟

بعد فترة ذهول، وقبل انصرافي، سألني مستهجنا: أنت يا بني عايش معنا في البلد دي؟

خرجت من عنده مهموما مكتئبا، أحمل في يدي خطاب الاستغناء عن خدماتي، وفي اليد الأخرى دبلة الخطوبة التي ناولتها لخطيبتي، فقد أصبح قطرها يفوق حجم أصابعي المتضائلة. غادرت الجريدة يختلج بداخلي الهم والحزن، فرصتي الذهبية قد ضاعت، وحبيبة الفؤاد قد راحت، وكان مبلغ حزني العميق يكمن في عدم انتباهي لرخص البني آدم المصري، حتى صار الآلاف منهم لا يعادلون أصابع قدم طفل... من أطفال المساخيط.

على مقربة من والدي وجدي وقفت ملاصقا لأخي الذي يكبرني بنحو عشر سنوات، أتابع توزيعهما لحم الذبيحة على مساكين القرية، احتفالا بقدوم أخي الصغير، ورغم عدم بلوغي الخامسة عمرا، فإنني أستطيع إدراك أن هذا التقليد يخص قدوم المولود الذكر دون الإناث، إذ تقتصر احتفالية الأنثى على دعوة الأصدقاء للاتجاه إلى ضفاف نهر النيل، ويتم منحها اسما في ظل وجود الأهل والأصدقاء من بلدتي بالنوبة.

كم كنت أعشق تراثنا الفريد في الأبنية والموروثات، حيث تؤسس المباني بشكل أفقي، ويتكون كل مبنى من المدخل ثم الحوش السماوي (الفناء) القباوي الذي يضم غرف النوم، المخزن، الديوكة التي تعد مكانا للطهي (المطبخ)... ثم ينتهي المبنى بالمزيرة (المرحاض) هذا فيما يخص الشكل الداخلي، ولم يبخل الشكل الخارجي بتفرده عن أبنية القرى والحضر في المناطق الأخرى، حيث تزدان جميع الأبنية برسومات بدائية وألوان زاهية تمنحها قدسية تفرد أهالي النوبة، ومن حسن الحظ أن وهبني الله قدرة فائقة على مزج الألوان وتطريز الجدران برسومات تمنحها وشم

النوبية، وأصبحت معظم جدران قريتي تحمل توقيعي وبصمات فرشاتي.

رغم براعتي في نسج التابلوهات على وجهات الدور، كنت دائم الفشل في مجاراة أصدقائي في تسلق النخيل الذي يعد أهم الأنشطة الرياضية في القرية، وإن لم يعوق ذلك استمتاعي بمذاق ثمار النخيل من بلح وتمر، وكذلك شراب العرقي الذي يعد أشهر المشروبات في قريتنا، وكذلك الأبراي الذي يعد مشروبا أساسيا خلال شهر رمضان، وهو خليط من دقيق الذرة مع الحلبة، ورغم تعدد أوجه التفاخر بانتمائي إلى أهل النوبة، فإن حياة المرأة كانت أكثر ما يؤرقني في بلدتي الجميلة، فكما كان يتم تقديم الذبائح في سبوع المولود الذكر، كان يتم ذبح الأنثى في سبوعها باقتطاع جزء غالٍ من أنوثتها، كما أن العرقي يتاح للمراهق الذكر ومحظور على أي أنثى، مهما بلغ عمرها، حتى يتم زواجها، والمشكلة الأكبر هي إجازة زواج النوبي بأجنبية، أما النوبية فهي مكبلة بعدم الزواج إلا من الأهل، ابن العم أو ابن الخال، ويمكنها الزواج بأحد رجال القبيلة، وتمنعها التقاليد من الارتباط بأي من القبائل النوبية الأخرى.

بالطبع انعكس ذلك على تفشي ظاهرة العنوسة التي تتفاقم يوما بعد يوم، حتى أصبحت المرأة النوبية التي يتجاوز عمرها العشرين عاما، تعد من العوانس.

كان لبراعتي في الرسم والألوان دور كبير في انتقالي إلى مدينة الحياة، حيث التحقت بكلية الفنون التطبيقية بجامعة القاهرة، ورغم غربتي ومفاهيمي المبهمة عما يدور حولي من مظاهر الموضة فيما ترتديه النساء، وبعض العلاقات التي أراها مشبوهة، فإن تمكني ونبوغي فيما منحني الله من هباته جعلني أكثر تميزا بين جميع الزملاء، وكنت على مقدرة على ألا يستغرق رسم اللوحة نصف الساعة، في حين كان يشغل رسمها أيامًا وليالي لدى باقي الزملاء. أصبحت محل تقدير هيئة التدريس قبل الزملاء، حتى صرت ألقب بالفنان، وأحيانا بالعالمي.

مثلما منحني الله هبة الرسم، وهبني أيضا إعجاب فاتنة الدفعة، الآنسة الجميلة عايدة، وأصبحنا متلازمين في أي جمع أو مشروع دراسي، انشغلت تماما، إذ استطعت الالتحاق بالعمل في إحدى المجلات الشهيرة بفضل سعي أحد أساتذتي الأجلاء، كما انشغلت بالدراسة للاحتفاظ بتفوقي، وبالطبع كان أكبر انشغالي هو لقاءات ملاكي الجميل.

كان لا بد من زيارة بلدتي، إذ علمت أن أخي الصغير مقبل على الزواج، اندهشت في أول الأمر، فهو دون العشرين ربيعا، إلا أنني فرحت كثيرا حين علمت أن العروس هي بنت عمي، ولزواج بنت العم طقوس مادية مختلفة، المهر يكون رمزيا وتقوم العائلة بتأسيس عش الزوجية بالكامل، كما يقوم الأصدقاء بالمساهمة بما يطلق عليه "نقطة" العروسين، وأكاد أجزم بأن هذا التقليد منبعه بلاد النوبة قبل أن تنتقل عدواه إلى بلاد الحضر، وفي تقليد نوبي بحت تم زفاف أخي ليلة العرس ليغتسل بمياه النيل، وفي زفة أخرى يقودها أخواتي العوانس وزوجة أخي الكبير وبناته وبعض الصديقات اللاتي يصحبن العروس لتقوم هي الأخرى بالاغتسال في مياه النيل، وكم كانت فرصتي عظيمة بحضور العرس للاستمتاع بأشهى المأكولات النوبية (المديدة، السخينة، الفتى، العصيدة، الكدوبي، الشعرية) وكذلك الاستمتاع بأعذب النغمات النوبية التي تصحب رقصة الأراجية، التي يتشارك في خطواتها رجال الأهل ونسائهم.

عدت بعد العرس إلى قاهرة المعز مشبعا بغبطة الفرح وأشهى المأكولات، حاملا داخلي غصة عنوسة أخواتي ومعظم بنات القبيلة، محملا بإحساس ذنب يملأ كل ثكناتي، لارتباطي بعايدة دون بنات الأهل، ولكن هذا أمر الله، والقلب وما يعشق، ولست

الأول ولن أكون الأخير، في السنة التالية علمت أن أخي الصغير قد رزق بولد، وفي الموسم التالي رزق ببنت، وكان لا بد من اتخاذ خطوة إيجابية في مشروع ارتباطي بعايدة، وبالفعل تمت خطبتنا بشكل رسمي في ظل وجود والدي وأخي الكبير، وكان انبهارهما بجمال وحسن عايدة محل فخر ومباهاة لأهل النوبة جميعا.

أصبحنا من مشاهير الكلية، فكانوا تارة يلقبوننا ببلاك آند وايت، وأخرى يطلقون علينا شاي بلبن. ازداد تقاربنا يوما بعد يوم، واقترب موعد قراننا بعد أن صرت ركيزة من ركائز المجلة التي أعمل بها، إلا أنه أحيانا تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، فقد أصابتني رياح القدر بموت أخي الكبير، وبعد الانتهاء من مراسم الجنازة اتجهت إلى القاهرة قاصدا فيلا عايدة، حيث خلعت دبلتها وودعتها عيناي في لقاء أخير، لم تنبس شفتاي بكلمات شرح مستفيض، فهي لم ولن تفهم أن سلو بلدنا يلزم الأخ غير المتزوج بحتمية قرانة بأرملة أخيه، وأن يتولى تربية أولاد أخيه المتوفى.

عدت إلى بلدتي مرة أخرى وتزوجت أرملة أخي التي تكبرني سنا، وارتضيت حياة النوبة التي تتفاقم فيها ظاهرة العنوسة. لم تمر

سنوات إلا ورزقت ببنت، والغريب في أمري أنه في حفل سبوعها استدعيت الداية مدججة بمشرطها لتقوم بختان مولودتي عايدة.

أدركت وأيقنت أن العنوسة ليست ظاهرة نسائية... العنوسة يا سادة أخطر من ذلك بزمااان، العنوسة عنوسة فكر وعرف وتقاليد، العنوسة ببساطة عنوسة أمة.

بلاغ ضد مجهووووول

– السلام عليكم... حضرة الظابط... أنا أحمد درويش... أخو اللواء جمال درويش... عايز أعمل بلاغ من فضلك.

– عليكم السلام... أهلا وسهلا... استريح حضرتك ودقايق وأكون مع جنابك.

بعد دقائق معدودة التفت إليّ الضابط مستفسرا: خير يا افندم!

– لو سمحت عايز أعمل بلاغ.

– ضد مين يا فندم.

– بلاغ ضد مجهول.

– ومجهول ليه! إن شاء الله نوصل له ونجيبه... اتفضل أعطني التفاصيل.

– الحقيقة الحكاية بدأت منذ فترة طويلة، عندما ساقتني الظروف للتعرف على زوجتي في أثناء قضائها إجازة قصيرة بالقاهرة، فهي مصرية تقيم مع أسرتها ووالدها الذي يعمل بالخليج منذ زمن بعيد،

ومنذ اللحظة الأولى تفاعلت الكيمياء بيننا، وقبل انتهاء الإجازة تمت خطبتنا وتقدمت بالشبكة التي استولت على جميع مدخراتي.

– يبقى الشبكة اتسرقت وعايز تبلغ...

– لا، جاي لحضرتك في الكلام، تم القران بيننا مما سهل حصولي على التأشيرة، وتقدمت باستقالة من عملي المتواضع، لألتحق بعمل جديد بالخليج بفضل مساندة والدها العزيز، وانتقلت إقامتي إلى الأراضي البترولية لأنعم بحياة هادئة مستقرة لا يشوبها إلا افتقادي لأمي وأبي وإخواني وأصدقائي، ظلت الحال مستقرة إلى أن رزقت بفلذتي كبدي ياسمين وكريم، وحين بلغا سن دخول المدارس اتخذنا القرار الصعب بعودة زوجتي والأولاد للإقامة في القاهرة، على أن يتم استقدامهم في الإجازات الصيفية.

ظلت الأمور على ما هي عليها، ومرت السنوات وصرت أعيش عازبا لمدة تسعة أشهر، وأمتثل لدور الزوج والأب ثلاثة أشهر نقضيها في الشوبنج وتستيف الحقائب.

– يبقى الحقائب ضاعت وحضرتك عايز تبلغ...

– لا، جاي لحضرتك في الكلام، حالت ظروف عملي وحرصي على زيادة مدخراتي دون نزولي للقاهرة للإطمئنان على الأهل ورؤية أمي وأبي الذي بدأت حالته الصحية تسوء، وللأسف الشديد انتهت الحال بانتقاله إلى العالم الآخر دون نظرة وداع، وجاءت صدمتى كبيرة حين علمت بالخبر عند مطالعتي للنعي في الجريدة المصرية التي تصلنا في اليوم التالي لصدورها.

– البقاء لله، يبقى كان فيه مشاكل في الإرث، وتتقدم ببلاغ ضد باقي الورثة...

– تفكير حضرتك راح لبعيد، مافيش المشاكل دي خالص بيني وبين إخواني، أنا كل مشاكلي كانت تنحصر في اشتياقي لأمي وأولادي، خصوصا افتقادي لأحوالهم الحياتية، مشكلاتهم المدرسية، حالاتهم الصحية، هواياتهم، أصدقائهم، شهية طعامهم، أطوالهم وأوزانهم، وملامح وجوههم التي كانت تتبدل كل تسعة أشهر، وذات يوم علمت بمرض أمي، بادرت بالنزول، فرصيد إجازاتي يسجل في موسوعة جينس، ورغم قضائي شهرا كاملا فإنك تشتاق لأمك عقب لحظات من فراقها... بعد نحو ربع قرن على هذا المنوال قررت إنهاء حياة الغربة والعودة النهائية لأرض الوطن.

– لعلك تعرضت لحالة نصب في تحويل مدخراتك إلى القاهرة، أو عند محاولة استثمارها في مشروعات وهمية.

– لا المشكلة أنني اكتشفت أن الغربة ما زالت تصاحبني، الغربة أصبحت داخلي، أشعر أنني غريب في بيتي، لا أجيد التعامل مع أولادي، فهم مختلفون في القاهرة عنهم في أثناء الإجازات، أو ربما أكون أنا صاحب الاختلاف، معظم شباب العائلة لا أستطيع التعرف عليهم، فقد ولدوا وشبوا بمنأى عن وجودي... حتى زوجتي صارت هي صاحبة الرأى الأول والأخير، فهي الملمة بكل الأشياء.

– سيدي الفاضل، ممكن أعرف البلاغ يتهم مين ويخص إيه؟

– حضرة الظابط، أعتذر، طولت عليك، البلاغ يخص سرقة، والمتهم للأسف مجهول.

– ممكن أعرف إيه اللي اتسرق منك؟

– اتسرق مني... شبابي، وأيامي الحلوة، اتسرق مني عمري.

انتفض الضابط من مقعده واقفا، وأشار إلى ساعي المكتب: واحد ليمون هنا من فضلك.

ثم ربت على كتفي مرددا: ربنا يديك الصحة، يعوض عليك ربنا يا والدي...

أقفل المحضر... وتم إسناد البلاغ ضد مجهووووول.

سد حنك صعيدي

كانت أمي وأخواتي السبع دائما ما يتحاكين عن حفاوة استقبالي حين مجيئي إلى الحياة، شأني شأن أي ذكر يولد في قرية إتليدم، مركز أبو قرقاص بصعيد مصر، خصوصا أن مجيئي جاء بعد سبع أخوات من الإناث، ويكفيني فخرا أن الأعيرة النارية التي أطلقت في استقبالي تكفى للقضاء على جماعتي داعش والقاعدة، آه كم كانت طفولتة جميلة مدللة، وكم كانت فرحة أبي بقدومي، ليكتمل صك رجولته الذي لا يمنح للصعيدي إلا بعد خلفة الولد، ليلقب بأبو هاشم، رغم أبوته لسبع إناث من قبلي.

للأسف دوام الحال من المحال، فبمجرد بلوغي السنوات الست انقلبت الحال وباتت طفولة قاسية جافة، إذ بعد هذه السن يصير بكاؤك جُرسة وأنّات ألمك فضيحة وشكوى مظلمتك عارًا، ولا توجد دار في إتليدم يسكنها غلام إلا وتسمع داخلها عبارة "عيب خليك راجل.. إنت بقيت راجل"، وكأن الرجولة تسلبك آدميتك التي حباك الله بها. بعد سنوات بدأت أرصد وأتأمل أحوال قريتي التي تهمل الخرائط عنوانها، رغم قربها من محافظة المنيا، ويبلغ تعداد سكانها نحو عشرين ألفًا، يعمل جميعهم بالزراعة، حيث لا توجد

مصانع بالقرية، وإن كان هناك بعض المتاجرين الذين يقومون بتسويق المحاصيل، كان أهل القرية يتسمون بالود والمحبة، وديارهم يغلب على مبانيها الطوب اللبن، وكان طعامهم سواء، متنوعا بين العصيدة والمخروطة والسخينة، ولا توجد دار بإتليدم إلا وملحق بها فرن لخبيز العيش البتاو أو الفايش، ورغم تنوع الأطعمةفإن سد الحنك كان هو الحلو المقرر على الجميع ولا حياد عنه، على الجانب الآخر كانت تقع سراي السبعاوي بيه، المحاطة بفدادين من الخضرة، وبرواز من الأسيجة العالية التي تجعل منها مقرًا بباويًا لاستقبال وفود الحكومة والبيه المأمور والعمدة، وشيخ المسجد الكبير والأنبا كيرلس خادم الدير والكنيسة، أما دون هؤلاء فغير مصرح لهم بالدخول إلا باستصدار تأشيرة، وتتباين التأشيرة بين تأشيرة عمل للقيام بخدمة البيه وضيوفه، وتأشيرة أمنية تقتصر على الأسوار لزوم حراسة البيه ووفوده. كان أكثر ما يدهشني نزول مطاريد الجبل إلى البلدة كل يوم سبت ليقوموا بتحصيل الضريبة أو الجزية من كل دار، دون اعتراض أو شكوى أو إشهار السلاح في وجوههم، وينتهي بهم الأمر بوليمة يعدها لهم السبعاوي بيه، والغريب دخولهم السراي دون تأشيرة، وعلمت بعد ذلك أن السبعاوي بيه كان يناصفهم فيما يحصلون عليه من أموال. ظلت الحال هكذا لسنوات تسودها السكينة ولا

يعكر هدوءها إلا بعض الفتن من حين لآخر بين المسلمين والمسيحيين، لتلتقط الأسلحة أنفاسها بعيدا عن الولادات والأفراح، إلى أن مَنَّ الله علينا بقدوم الشيخ عبد الفضيل مندوب الأوقاف لمشيخة المسجد الكبير، والذي استهل وصوله بلقاء السبعاوي بيه وأعقبها بوليمة تليق بالشيخ المستجد على البلدة، كان الشيخ رجل دين من طراز خاص، وكانت خطبه مشوقة، وكانت تتناول جميع الأنبياء ويستشهد بآيات من الإنجيل والتوراة، بل كان يسترسل في معجزات من سبقونا من الصحابة والحواريين، يوما بعد يوم أصبحت اعتذاراته عن ولائم السبعاوي مألوفة، ثم انتهج سبيلا جديدا للقضاء على الفتن، فصار يصطحب من يشاء من المسلمين إلى الدير بعد صلاة الجمعة ليقضي يومه، وينظم مباريات كرة ومسابقات لشد الحبل وأخرى ثقافية ودينية، مراعيا أن يضم كل فريق خليطا من المسيحيين والمسلمين، مع مراعاة توقيف المسابقات وأداء الصلوات في حينها خارج أسوار الدير، لم يكن غريبا حضور بعض المسيحيين للاستماع إلى وعظ الشيخ الجليل، ولم يكن غريبا اعتذار أبينا كيرلس عن تلبية دعوات السبعاوي أسوة بالشيخ الجليل، أصبحت ألازم الشيخ كظله، وأصبحت أحفظ كل وعظاته، وكم كانت فرحتي حين خطب في الجمع مرددا: أطلقوا العنان لأطفالكم في البكاء، فالدموع تغسل

الهمـوم والأحـزان، اجعلـوهم وإيـاكم أسـوياء، يبكـون، يتـألمون، يشكون، يتظلمون، كونوا آدميين...

بعد هذه الخطبة تجرأت وشكوت للشيخ مرارتي من استسلام أبي ورجال بلدتي لدفع الجزية، وإذا بالشيخ يأمر كل بيت بدق الطبول والأواني النحاسية أمام كل باب طوال كل يوم سبت، كما أصدر أبونا كيرلس تعليمات بأن تدق الكنيسة أجراسها... عندما رأى المطاريد هذه التظاهرة لم يجرؤ أحدهم على الاقتراب واكتفوا بوليمة السبعاوي واختفوا، في السبت التالي خططوا لاغتيال الشيخ، وعندما اقتربوا من محل إقامته وجدوه في حراسة مشددة من خيرة شباب الكنيسة والمسلمين، فكروا في حيلة إشعال الفتن واتجهوا إلى الكنيسة لحرقها، وفوجئوا بكتل بشرية من حافظي القرآن الكريم ومجموعات من منشدي الإنجيل تحرس بيت الله. اتجهوا إلى سراي البيه ليفاجأوا بإلغاء تأشيرة دخولهم عن طريق عائلات كاملة تحوط السراي، مع عزف منقطع النظير للأواني النحاسية، اختفى المطاريد بعد أن تخفى معظمهم في ثياب الحريم، وبعد مداولات مع الشيخ والبابا استطاع المحافظ والمأمور إخلاء سبيل السبعاوي بيه المحددة إقامته، وغادر إتليدم.

بعد فترة فوجئ أهالي إتليدم بقرار نقل الشيخ، والغريب عدم دهشة الشيخ لهذا القرار، بل كان يترقبه، فقد ألف هذا الأمر... بعد مشورة الشيخ والبابا، تم سحب الثقة من العمدة وتم تأسيس مجلس للقرية يضم بعض الحكماء، وخليطا من شباب الهلال والصليب، لتولي شؤون القرية، خرجت البلدة كلها في وداع الشيخ عبد الفضيل، يرافقهم البابا الذي حرص على دق أجراس الكنيسة تحية وعرفانا لرجل زرع المحبة والسلام في النفوس قبل الوديان. عند وصول القطار فوجئ أهل البلدة بقدوم السبعاوي بيه ظنا منه أن الحال ستعود إلى ما كانت عليه بعد مغادرة الشيخ، وخاب ظن الرجل حين علم أن مجلس القرية الجديد أصدر أول قراراته بفرمان يحظر على الجميع تناول سد الحنك.

"عماد الدين محمد أحمد.. امتياز" كانت هذه الدرجة تزين اسمي في كشف نتيجة بكالويوس الحاسب الآلي، وجاءت فرحة أمي وأخواتي عارمة بتفوق آخر العنقود ورجلهم الوحيد بعد رحيل أبي منذ الصبا. بعد سنوات حرصت أمي على تزويجي بحرمنا المصون، شريطة أن نقيم معها في نفس الفيلا، فأمي لا تطيق فراقي ولا تقوى على جفاء بعادي.

اضطرتني ظروف عملي ودراستي إلى حتمية السفر إلى أمريكا لإنهاء رسالة الدكتوراه، ومناقشتها مع البروفيسور جيمس وايت المشرف على الرسالة، بعد شهرين من إقامتي في أمريكا بدأ إحساس قلقي على أمي يزداد، رغم حرصي على مهاتفتها يوميا بشكل دوري، إذ رصدت في صوتها الناعم خمولا ووهنا يزداد يوما بعد يوم.

فوجئت في السادسة صباحا، أي الرابعة عصرا بتوقيت القاهرة بمكالمة من أكبر أخواتي، تبلغني بتدهور حالة أمي وتطالبني بالحضور فورا. لملمت حقائبي واتجهت إلى المطار واستقليت أول طائرة متجهه إلى القاهرة، حين وصلت إلى الفيلا أدركت أنني

تأخرت كثيرا، إذ استغرقت الرحلة نحو ست عشرة ساعة، ووجدت المنزل وحجراته مفعمة بالسواد، آاااه كم تمنيت أن يكون رحيلك يا أمي على صدري، وآاااه، على لوعتك بفراقك الحياة دون نظرة وداع مني.

حين دار ذلك بخلدي قررت أن أخوض التجربة وأقوم بأول رحلة من نوعها، وهي رحلة مرافقة أمي لحين وصولها إلى البرزخ في أمان. انشغل أزواج أخواتي باستخراج تصريح الدفن ومراسم الجنازة، وبدأت أنا في إعداد وتجهيز رحلة تستغرق أربعين يوما داخل القبر. اتجهنا إلى مدافن العائلة وكنت أول النازلين إلى القبر حيث استقبلت تابوتين، تابوتا يحمل جثمان أمي الطاهر، والآخر يحوي مستلزمات الرحلة من أنابيب أوكسيجين ومياه والزاد والزواد، هذا إضافة إلى أجهزة رصد ومسجل وأربعين شريط كاسيت وصندوق بطاريات إضافية.

تأكدت من أن ساعة يدي تحوي "نتيجة" لحساب الأيام، ولم يفتني فرش بعض الرمال في ركن ينأى عن مكان الجثمان لقضاء حاجتي. بدأ اللحاد في غلق القبر بعد أن زودني بسلك كهربائي ولمبة خافتة الضوء، حرصا على عدم إزعاج ملائكة الموت، تم ذلك في ظل دهشة وعويل زوجتي وأخواتي وجميع الحضور.

بدأت الرحلة، ويا لها من رحلة، وضعت قناع الأوكسجين وشغلت الكاسيت والأجهزة وبدأت الترقب، في مستهل الليلة الأولى وجدت أمي تقوم وتستقبل طابورا من أموات العائلة يتقدمهم أبي، رحمة الله عليه، ومعه لفيف من الأجداد، واسترعى انتباهي وجودي في الطابور، ولكن عند التعارف أدركت أنه جدي الخامس الذي يشبهني كثيرا، أو عفوا... أشبهه كثيرا، وجال بخاطري تساؤل: هل الحياة كروية مثلها مثل الأرض؟ هل يحيا الإنسان أكثر من حياة في أكثر من زمان؟ الله وحده أعلم. بعد حفل الاستقبال والتعارف غادر الجميع إلى البرزخ، عدا أمي التي عادت مرة أخرى إلى مرقدها.

رصدت الأجهزة ملكين يحيطان بجثمان أمي، بدأ ملك اليسار توجيه الاتهامات لأمي، تأهبت للدفاع عنها، وإذا بيد قوية تربت على كتفي وتلزمني الصمت، ويبادر ملك اليمين بالدفاع عن أمي ويبلي في ذلك بلاء حسنا. لو استجمعت فصاحتي واستعنت بجهابذة القانون والدفاع لما استطعنا قيد أنملة أن نمثل نقطة في بحر مذكرة دفاعه. رصدت الأجهزة سحابة نور يتدلى منها ميزان، وبدا أن هناك من يقوم بتصحيح ورقة اختبار حياة أمي، وكم كان ملك اليمين كريما، فكان يمنحها أعلى الدرجات وكم اختلف مع

ملك اليسار انحيازا لها، أو ما ظننت أنه انحياز، ولكن علمت أن نواميس الحياة الأبدية أكرم وأجود بكثير من نواميس حياة الدنيا.

ظلت الحال هكذا ليالي بعد ليال، حيث لم يكن هناك نهار أو أيام، وتباينت ملامح وجه أمي، فتارة تتبسم وأخرى تتجشم، سادت بعد ذلك فترة طويلة من السكون لا يكدرها إلا أصوات استغاثة تصدر مما يشبه معتقلات الدنيا، أو أنغام موسيقى هادئة تأتي من الأفق البعيد.

قاربت الرحلة على الانتهاء، بقيت ثلاثة أيام وأعود إلى زوجتي ودنياي بعد أن أطمئن بصعود روح أمي إلى البرزخ، تناوبت أنابيب الأوكسجين على فمي وأنفي، وإذا بالأنبوبة الأخيرة فارغة لا تحوي أوكسيجين، آه، كم أنت جشع أيها الإنسان، تنقلت من أنبوبة لأخرى لعلي أستطيع البقاء على قيد الحياة.

بدأت حالتي تزداد سوءا، حرصت على تسجيل ملاحظاتي ووصيتي، فوجئت أن المسجل لا يحوي إلا طلاسم مبهمة من أصداء الصوت في الأماكن المغلقة المفرغة الهواء، بدأت في غفله قادتني إلى غيبوبة، وسمعت صوتا مدويا.

إياك وحياة الموت، إياك وأسرار الموتى، سمعت هذا النداء ثلاث مرات، بعدها فتحت عيني، وإذا بطابور طويل في استقبالي تتقدمه أمي.

أيقنت أنني انتقلت إلى العالم الآخر، انتقلت إلى حياة الموتى... في اليوم الأربعين، تم فتح القبر وزاد العويل والنحيب حين وجدوني جثة هامدة، أغمضت عينيّ في هدوء واستسلام، داعيا لأسرتي بالصبر والسلوان، ومتمنيا عدم خوض أحدهم تجربة رحلتي التي لم تسفر عن شيء إلا مزيد من الطلاسم واللوغارتيمات، والأسرار التي تحيط حياة الموتى.

أرزاق

حرصت أنا وشركاء دفعتي قبل التشتت والتفرق في السعي عقب التخرج، على الاتفاق على لقاء سنوي يضمنا على مائدة إفطار اليوم العاشر من رمضان، بنادى تجديف الجامعة على شاطئ نيل الدقي، ورغم حرصنا على هذا اللقاء فإن مشقة السعي وانشغالات الزواج ومشكلات الأولاد نالت من حماس بعضنا، ما جعل مواظبتي على اللقاء يفتر شيئا فشيئا حتى تلاشى تماما لسنوات وسنوات، وقد أدهشني كثيرا استقبال مكالمة تليفونية من أحد زملاء الزمن الجميل بعد طول فراق، يهنئني بالشهر الكريم ويذكرني بلقائنا السنوي.

ورغم تحديد إقامة سيارتي الدوجان بمدينة نصر، حرصت على استخراج تأشيرة تمنحني فرصة دخول الدقي، لعلّي أقوم بتوصيل أحد الزملاء، أو ربما كان الأمر من باب المنظرة.

بعد لقاء حميم مع زملاء يرتدي معظمهم كابات من الشعر الأبيض، وتتقدمهم تمتد كروش تجعل من عناقهم مغامرة خطرة، تجرعنا العديد من الذكريات وتجاذبنا الكثير من الأحاديث التي لم تصمت إلا لأداء الصلوات، بعد أمسية جميلة وقف الجميع أمام

النادي يودع بعضنا بعضًا مع تبادل أرقام هواتفنا المستحدثة، وفوجئت بأسطول من السيارات ذات الخمس نجوم، مرسيدس، بي إم، فولفو، جيب، وغيرها، عرض علي بعضهم توصيلي إلا أنني أجبتهم أنني جئت بسيارتي، مع حرصي على عدم الإشارة إليها وعلى أن أكون آخر المغادرين للمكان.

في اليوم التالي، وفي أثناء عودتنا عقب صلاة التراويح، تبادلت الحديث مع جاري العزيز الشيخ إبراهيم، وصارحته بما يدور بالخلد، ناشدا براءة ذمتي من أي غيرة أو حقد أو حسد لما فتح الله به على زملائي من سعة رزق، والحقيقة أن كلمات الشيخ الجليل جاءت شافية عافية، حيث توقف قليلا ونظر إليّ مستفسرا عن نظرتي ومفهومي عن الرزق، لم ينتظر الشيخ إجاباتي، بل استطرد قائلا إن الكثيرين يحصرون الرزق في المال والنقود، رغم أن الرزق يشمل كل جوانب الحياة...

أبوك وأمك رزق، موطنك وبلدك رزق، ملتك وديانتك رزق، لسانك ولغتك رزق، إخوانك وأخواتك رزق، أصحابك وجيرانك رزق، قدراتك وهواياتك رزق، دراستك ومجال عملك رزق، ساعات نومك رزق، زوجتك وأولادك رزق، صحتك وعافيتك رزق، فلاح أولادك رزق، أزواج بناتك رزق، زوجات أولادك رزق، أحفادك رزق،

محبة الناس رزق، راحة بالك رزق، حتى صلاتهم عليك بعد مماتك رزق...

مع حديث الشيخ الجليل الذي لا ينتهي، تذكرت البارحة وحرص بعض الزملاء على تناول بعض العقاقير قبل وبعد الإفطار، تذكرت أن بعضهم لم يتزوج وبعضهم يعيش وحيدا بعد طلاق زوجته، وبعضهم حرمهم الله نعمة الإنجاب، وغيرهم يشكو تعثر أولاده دراسيا أو عقوق بعضهم.

حمدت الله كثيرا وشكرت الشيخ الجليل، ولم تفتني الاستعانة بالمعوذتين تحسبا لحسد بعض الزملاء وخشية من عين الشيخ إبراهيم، اتجهت إلى منزلي، ضممت زوجتي الحبيبة العفيفة واحتضنت أولادي، توضأت وصليت ركعتي شكر، فقد أدركت أنني من أغنى الأثرياء، شعرت بقليل من البرد، تذكرت سيارتي الدوجان، اتجهت إليها بمدخل المنزل وقمت بإسدال غطائها عليها، شاكرا لله عطاياه، وداعيا أن تكون سعة رزقه فيما منحني من قناعة ورضا، وفيما ادخره لي من رزق في الحياة الأبدية.

الكومى... والشايب

لم يمض وقت طويل بعد تخرجي في كلية الإعلام، حتى ساقتني الأقدار إلى الالتحاق بالعمل في إحدى شركات التسويق كمندوب بيع، ورغم رمزية راتب الوظيفة فإنها كانت تخصص عمولات طائلة في حال تسويق المنتج الهلامي، إذ كان المنتج المنوط بي تسويقه هو "أسابيع للبيع" فيما يطلقون عليه "تايم شير" أو تبادل الأسابيع، ورغم حداثة الفكرة في مستهل الثمانيات، استطعت تحصيل مبالغ لا بأس بها، وقد حرصت على اختيار البيئات المناسبة لتسويق الفكرة، مثل أندية الصفوة، الجزيرة، هليوبوليس، الصيد، وأنديه أخرى، هذا إضافة إلى شركات الطيران، لاستثمار مجانية تذاكر سفر العاملين، وكذلك أعضاء الليونز والروتاري والكيانات الأخرى ممن تتوافر فيهم ثقافة قضاء الإجازات بالخارج، أو زيارة منتجعات مصر الجميلة في الغردقة وشرم الشيخ، ولم يفتني تدعيم علاقتي بموظفي الاستقبال في القرى السياحية، وإرسال بعض الهدايا من حين لآخر، وأصبح عملائي يحظون بتسهيلات وتعامل خاص.

لم تمض سنوات ثلاث إلا وأثمرت رحلتي العصامية، وصار لدي مبالغ تسمح بزواجي، وعودتي إلى مجال دراستي وتأسيس مشروع العمر المتمثل في مكتب إعلانات، ورغم عبور أكتوبر العظيم فإن النمط الإعلاني في ماسبيرو كان لا يزال على شاكلته النمطية الساذجة، وكان المناخ ملائما جدا لإحداث ثورة وطفرة في الإعلانات المرئية والضوئية، ما جعلنا بفضل الله نفتتح بعد فترة وكالة "فريد الكومي الشايب" للإعلانات، لتعتلي ريادة عرش مصر وتصدر إعلاناتها إلى معظم البلاد العربية.

بعد النجاحات المذهلة انتقلنا إلى فيلا خاصة تزينها حديقة جميلة يحيطها سياج مرتفع يمنحها مزيدا من الخصوصية. لم أفرط في شقتي المجاورة للوكالة والتي تضم مكتبة كبيرة تضم عظماء مصر من أدباء وفلاسفة. كانت هذه الشقة ملاذي المفضل كلما اشتقت للأدب وأحيانا لقلة الأدب، حرصت في مجال عملي على الاستعانة بخريجي الجامعة الأمريكية الذين يتقاضون رواتب مضاعفة، سعيا إلى أفكارهم المستنيرة وإبداعاتهم التطبيقية، وحرصت أيضا على احتفاظي بأسوار عالية في تعاملاتي مع حسناوات الوكالة، واتسمت علاقاتي مع الجميع بالجدية وترسيم الحدود، ورغم ذلك فوجئت في عيد ميلادي الخمسين باحتفالية أنيقة شارك فيها جميع العاملين بزعامة كارما سكرتيرتي الجديدة،

لم يمتد الحفل طويلا، فقد انصرف كل إلى عمله بعد توجيه خالص شكري وامتناني لهم. عند وصولي مكتبي وجدتها في انتظاري، باقة ورد جميلة تحتضن هدية أنيقة مغلفة بكلمات رقيقة تحمل توقيع كارما.

مرت الأيام وزادت اهتمامات كارما، وكانت دائمة الثناء على أناقتي وانسجام ألوان رابطات عنقي، وصارت بوصلتي التي تحدد اتجاهاتي من اجتماعات أو مقابلات، وفي أحد اجتماعات دراسة المقترحات فوجئت بكارما تتقدم باقتراح عبقري، وهو تحميل اللوحات الضوئية على جانبي الطريق بثلاث طبقات، ويتسنى لنا تحميل ثلاثة إعلانات تتناوب على كل لوحة كل ستين ثانية، كان هذا الاقتراح بمثابة كنز يضاعف من أرباح الوكالة، وتقديرا لها تم تخصيص مكافأة هي الأضخم في تاريخ الوكالة بل والوكالات الأخرى مع هدية خاصة تحمل توقيعي، إضافة إلى ضمها كعضو أساسي في مجلس الاقتراحات، وإن جاءت المكافأة الكبرى في انكماش ما بيننا من أسوار وإلغاء ترسيم الحدود، لتصبح صديقة قبل أن تكون سكرتيرة أو مجرد زميلة.

توالت الحوارات وأصبحت مهاتفتها، بعد انقضاء ساعات العمل، من طقوسي اليومية حتى في أثناء سفرياتي ومشغولياتي، كأن

مكالمتها هي مسك ختام يومي الصاخب، وصار اختيار هداياها يمثل أولى المهام، بل وأهمها، وكانت من حين لآخر تنتقي هي الأخرى بعض الهدايا التي تلزمني.

جاء أول لقاء لها مع زوجتي في حفل أعياد رأس السنة الميلادية، إذ اعتدنا إقامة حفل يضم جميع العاملين، واعتادت زوجتي مرافقتي لهذا الحفل، في ظل انشغال الجميع بفقرات الحفل كان شغل نظارتي الشاغل ملاحقة كارما، مع مقارنة غير عادلة مع زوجتي التي تقاربني في سنوات العمر، مع بداية العام الجديد حزمت أمري واتخذت قراري باستصدار قرار إزالة لما تبقى بيننا من أنقاض أسوار، وأصبحت لا أتناول غدائي إلا بمصاحبتها، وإن كانت زوجتي تمثل شريكة حياتي فإن كارما صارت تحوز القدر الأكبر من الشراكة في قلبي ووجداني.

جاء يوم التاسع والعشرين من يناير لتبلغ كارما سن الخامسة والعشرين، انتهزت الفرصة ودعوتها إلى الاحتفال بهذه المناسبة في مكان هادئ في أحد الضواحي المنعزلة، مع وعدي لها بإعداد مفاجأة تليق بهذه المناسبة، بعد الاتفاق على الموعد وقبل الانصراف، صرحت بأنها هي الأخرى تعد لي مفاجأة كبرى، توجهت إلى الجواهرجي وانتقيت هدية خاصة جدا، وحرصت على

تنظيف الشقة وتجهيزها بورود وشموع وطقوس زواج عرفي إذا لزم الأمر، وفي الموعد المقرر ارتديت أحلى الثياب وارتدت أشواقي حلة العرس في انتظار بزوغ شمس العروس، التي طلت عليّ تتأبط ذراع أحدهم.

– أقدم لك فريد بك الكومي، مديري وصديقي وقدوتي ومثلي الأعلى وأبي الروحي.

ثم أشارت إليه: هذا خالد، مفاجأتي الكبرى، وقد اشترطت مباركتك لخطبتنا قبل موافقة والدي وأسرتي.

بعد الاحتفال بهما مستعينا بقناع ستيفان روستي، اتجهت إلى الفيلا واصطحبت زوجتي متجها إلى شقتنا القديمة، مع تلاحق استفساراتها وظنونها حول الشقة، تقدمت لها بالهدية التي كان لها مفعول السحر في تبديد كل الظنون، واسترجعنا ذكرياتنا بليلة دافئة جميلة، وأمام المرآة وقفت متفحصا، لأدرك أن الشيب طال الكثير من شعر رأسي، وأيقنت أن زمن الكومي قد ولى، وأن الشايب هو رفيق سنواتي المقبلة.

رسالة إلى الوالي

كان تفوقي في كلية طب قصر العيني ينم عن نبوغ وعبقرية مبكرة في مجال الطب، حتى صرت محل إعجاب أساتذتي قبل زملائي، وأُشهد الله أنني لم أبخل يوما بعلم أو معلومة، وقد لقبت بالتلميذ الأستاذ، إذ كنت أضاهي بعض المدرسين في تجمع الكثيرين حولي ممن يستوضحون مني أمرا أو أفسر لهم لغزا، وكثيرا ما كانت تقودني بعض الأسئلة الساذجة إلى معلومات هامة، بل وتلعب بعض الملحوظات دورا في تعديل مساري النظري، هذا إضافة إلى استجلاء المعلومات بتكرار شرحها، أي أنني أقر أن المنفعة كانت تبادلية.

وحانت سنة الممارسات العملية، فيما يعرف بعام التكليف، ورحبت بالتحدي الجديد شاهرا سلاح المعرفة ومرحبا بعلوم وخبرة أساتذتي الأجلاء، وكنت عزمت أمري على التخصص بأمراض الباطنة، إلا أنني تذبذبت قليلا نحو طب الأطفال، متأثرًا بنبوغ الأستاذة لميس في هذا المجال، أصبحت أقيم إقامة شبه دائمة بقصر العيني، أتابع جميع الأساتذة من كثب في جميع التخصصات، وكثيرا ما كنت أقتصد ساعات نومي سعيا لمراقبة جراح يجري

عملية كبيرة أو خطيرة، وبقدر كرهي لمشهد الدماء جاء شغفي بمتابعة الجراحات المتعددة، حتى أصبحت من نزلاء ما يطلقون عليه "كشك الاستقبال" الذي ينتمي معظم رواده إلى حوادث الأسفلت.

بعد حين، أصبحت أمثل أهم دوبلير لأي زميل لديه ظروف خاصة أو يبغي التزويغ، ووجدتني آخر الأمر أدون في خانة استيفاء بيانات التخرج، تخصص جراحة عامة، لم تمض سنة إلا وكنت فيها دائم السعي لترقب كثير من العمليات التي يقوم بها باقة من ألمع جراحي مصر، وكنت أجوب جميع الضواحي اقتفاء لأثر جراح يجري عملية مستعصية هنا، أو يتبع أسلوبا تطبيقيا جديدا هناك، وكان أكثر ما يؤلمني ويزعجني ضياع الوقت في شعبطتي في المواصلات العامة.

اهتديت أخيرا إلى تخصصي في جراحة المخ والأعصاب، والتى كانت محل رسالة الماجيستير، وأصبح أساتذتي هم من يسعون إليّ ويحرصون على وجودي، لما أتمتع به من دقة في تنفيذ تعليماتهم واتباع إرشاداتهم، وخلال فترة قصيرة استطعت الدخول إلى موسوعة جينيس لأصبح أصغر بروفيسور في مجال المخ والأعصاب، بعد ابتكاري أسلوبا جديدا في جراحات هذا المجال،

وأصبحت عنوانا تنشده الحالات الحرجة وكثير من جراحي هذا التخصص، لم أنس لحظة فضل قصر العيني عليّ وقد خصصت يوم الخميس لأكون في خدمة القسم المجاني، وكشك الطوارئ الذي أدين له بالكثير.

تلقيت عرضا للانضمام إلى المستشفى الملكي بمدينة الضباب اللندنية، وبعد فترة تردد استجبت للعرض، شريطة تخصيص شهر كل سنة أتفرغ فيه للقسم المجاني بقصري الحبيب، لم تمض سنوات إلا وتوالت ابتكاراتي وأصبحت دهاليز مخ الإنسان بمثابة ملامح وجه ليلى لدى قيس، وقوام كليوباترا عند أنطونيو، هذا وقد أنعم عليّ بلقب "سير" وتعددت فخرية الدكتوراه من معظم جامعات أوروبا وأمريكا، بل امتدت إلى بلاد الشرق الأقصى، وقد رشحت أكثر من مرة لجائزة نوبل، إلا أن اعتذاري الدائم عن المؤتمرات والندوات حال دون ذلك، فأنا لا أبالي بهذه الشكليات، وقد وهبت نفسي ناسكا في محراب حجرة العمليات.

رغم تعدد الألقاب فإن "فرعون جراحة المخ" كان هو أحب الألقاب إلى نفسي، بعد فترة علمت بمرض أمي، كما تذكرت أنني لم أتزوج بعد، فقد سلبني الطبيب حقوقي الإنسانية، قررت العودة إلى بلادي لأرعى أمي وأنعم بمرافقتها لما تبقى لها من سنوات العمر.

حاولت إدارة المستشفى إقامة حفل وداع يليق بما قدمته من خدمات، إلا أنني اعتذرت مفضلا قضاء ساعاتي الأخيرة في محرابي المفضل بحجرة العمليات، توجهت إلى صالة المطار مودعا جميع أعضاء إدارة المستشفى وجميع أطبائها وممرضيها، إلا الحد الأدنى الذي يجب وجوده في المستشفى، وقد سررت كثيرا بمندوب ملكي جاء خصوصا لوداعي، وإن جاء بالغ سروري من مئات المرضى الذين حرصوا على وداعي رافعين لافتات الشكر والامتنان.

فوجئت في أثناء وجودي بصالة كبار الزوار بكاهن هندي كهل يستوقفني طالبا قراءة كفي، اعتذرت له، لأنني لا أميل إلى هذه الغيبيات، لم يأبه الرجل لما قلت وأفاد بأنه لا يتقاضي أجرا، وأن الله ساقه خصوصا لقراءة كفي التي اجتذبها دون مهلة الاستئذان، تبدلت ملامح وجه الرجل، إذ أصبح يحمل جبينا ملائكيا تحتل ابتسامته معظم مساحة وجهه، وقال: يا ولدي هذه الكف لم أر مثلها قط، خط المحبة في كفك يمتد ليطول أصابع قدميك، خط الثروة كجبل لا يستوعب باطن كفك إلا قمته، أما مكنونه تجده مرسوما في ظهر الكف.

صمت الرجل برهة عقبتها تنهيدة كادت تفضي إلى الإخلال بالتكييف المركزي في المطار، ثم نظر إليّ قائلا: يا بني خط عمرك يحمل آلاف الأعمار التي لا أستطيع إحصاءها، لكن هناك خطين يمثلان أعمار بدايتك وخاتمتك، أما الأول فهو لأمك التي ينتهي خطها بعد ثلاثين يوما، لتستأنف رسالتك التي حباك الله بها، وأما الثاني فهو لولدك الذي لا يستهل خطه إلا بعد فنائك، وتكون نهاية رسالتك هي خاتمتك.

بعد الانتهاء عاد الرجل إلى ملامحه الكهلة وأخرج قلما وأتوجراف طالبا توقيعي، هم الرجل بالانصراف حين وقع القلم الذي التقطته بسرعة، وفوجئت باختفاء الرجل تاركا القلم، ربما ليكون شاهدا على الواقعة وإقرارا بإنه لم يكن من وحي الخيال.

أسرعت مهرولا حين انتبهت إلى اسمى تتداوله الميكرفونات، راجين سرعة الاتجاه إلى الطائرة، بعد عودتي حرصت على المكوث بالمنزل بجوار أمي مع اطمئناني عليها بشكل يومي، عن طريق التحاليل والقياسات الطبية التي كانت تحقق أفضل النتائج، ورغم ذلك فوجئت في اليوم الثلاثين بثبات نظرتها الحنون وفتور ابتسامة وجهها، أخرجت القلم لأخط كلمات نعي أمي... كنت قد خطبت بنت خالتي ولم نسع إلى الزواج إلا بعد مرور سنة من

الحداد، ولم يفتني استخدام القلم في اعتماد عقد القران، بعد موت أمي وهبت علمي وعملي لخدمة البشرية، وأصبحت نزيل المستشفى فيما عدا ما اكتسبته من بلاد الفرنجة من قدسية إجازة نهاية الأسبوع، ونصف ساعة من التريض يوميا.

اتخذت من القسم المجاني بقصر العيني نقطة انطلاق لرسالتي، وكان كلما لجأ إليّ نجم مريض من نجوم المجتمع كنت أصر على إجراء العملية في القسم المجاني، ما يضطره إلى تجديد القسم بالكامل، بعدها أنتقل إلى مشفى آخر حتى يقوم أحدهم بعمل التجديدات اللازمة، وما زلت أتذكر إصراري على إجراء عملية لابن الوالي بالقسم المجاني بمستشفى أم المصريين، ولقائي بالوالي بعنبر يضم خمسة بجوار ابنه، شكرني الوالي على إنقاذ فلذته وصافحني وانصرفت مع وعد بمراسلته عند الحاجة.

بعد انتهائي من القاهرة اتجهت إلى المحافظات الأخرى ثم تجولت بين المدن والقرى، النقب وسيناء شرقا، والسلوم وسيوة غربا، ودمياط شمالا، وحلايب وشلاتين جنوبا، حرصت في جميع سفرياتي على استخدام القلم في تدوين كلمات امتنان لمن قام بعمل التجديدات المطلوبة.

أخيرا عدت وزوجتي التي كانت تلازمني في كل نجوع مصر إلى بيتنا الأنيق، ورغم طول العشرة وعدم وجود موانع للحمل فإن الله لم يمن علينا بنعمة الأطفال، ظننت أن رسالتي قد اكتملت، وتبددت ظنوني حين لجأ إليّ أحد أفراد عائلة خادم الحرمين، وتذكرت جزيرتي تيران وصنافير اللتين تفتقدان أي خدمات طبية، واشترطت إجراء العملية في مشفى تيران المصري، وقبل عودتي لزوجتي التي لم ترافقني هذه الرحلة استعان بي أحد رموز الكنيست الإسرائيلي، ورغم أنني ضد التطبيع لحين استرداد حقوق فلسطين المنهوبة، فإنني أعلم جيدا أن الطب خلق للجميع، وأن مشرط الجراح لا يميز بين عدو أو صديق، وتم إجراء العملية بمشفى صنافير المصري.

قبل التأهب للعودة استقبلت أحلى خبر يزف لرجل يشتاق كثيرا لكلمة بابا، إذ أخبرتني زوجتي ببشرى الحمل، تذكرت الكاهن الهندي وهممت بكتابة رسالة إلى الوالي.

"سيدي الوالي أكتب لكم هذه الرسالة موصيا إياكم بمراعاة ولدي الذي أعلم يقينا أن القدر لم يمهلني رؤياه وأستوصيكم بالآتي: توفير ألبان غير مسرطنة، مياه نقية غير ملوثة، طعام صحي لا يخالطه كيماوي، دواء فعال لم تطله أيادي الغش، مدرسة حديثة

ومنهج علمي مفيد، جامعة تجنح إلى التطبيقات العملية بعيدا عن النظريات الجوفاء، عمل يناسب دراسته ويلائم تطلعاته، مسكن صحي مناسب، متنزهات ومساحات خضراء تحجب السحابة السوداء..."

لم تسعفني أنبوبة القلم لاستكمال الرسالة، واضطررت إلى إرسالها منقوصة إلى جناب الوالي.

بعد استحمامي وصلاتي استقليت سيارة ليموزين متجها إلى زوجتي، وبسبب حفرة هائلة بالطريق انقلبت السيارة، وتجمع حولنا قلة من المارة، وقبل أن ألفظ أنفاسي الأخيرة قمت بتسليم القلم إلى أحدهم، موصيا بتوصيله لابني، لعله يستطيع تغيير الأنبوبة التي حالت دون إدراج "توفير الطرق الآمنة" في رسالتي إلى الوالي.

طفولة حب

جاءت نشأتي هادئة في بيت يكتنفه الدفء، في ظل حضن أمي وكفل حنان أبي، وعلى الرغم من تعدد أفراد الأسرة التي تحوي سبعة من الإخوة والأخوات، فإن أمي وأبي كانا يُشعران كلا منا بأنه وحيد أبويه.

مرت السنون وبدأت أشب متخلصا من ثنايا ساقي وممتدا للجذع، حتى أصبحت أطاول أبي، وبدأت مرحلة الفصل بين أنفي وفمي عن طريق خط يغزل شاربا خفيفا ليضعني على أولى درجات الرجولة، تخطيت مراحل التعليم بتفوق، شأني شأن جميع أركان الأسرة، إلى أن أدركتني سنة الحسم، الثانوية العامة.

رغم رحابة المنزل فإنه أصبح يضيق بأربعة رجال ومثلهم من الفتيات، ولكل عالمه الخاص ودراسته المتخصصة، كان عليّ البحث عن مكان بديل أستطيع أن أنفرد فيه بكتبي ودراستي، فكرت في مشاركة أحد الأصدقاء ولكنني عدلت عن الفكرة، تجنبا لضياع الوقت في حكايات المغامرات وتناتيش المراهقة التي لا تنتهي، ومن نعم الله التي لا تحصى أن منزلنا يواجه المتحف الزراعي، حيث اعتدنا ارتياده من حين لآخر لنتزود بجرعات

تحمل رحيق أصالة بلادنا وعمق حضارتنا، متمثلة في لوحات وشخوص غير مصرح لها بالكلام، فهي تماثيل صماء تنقل ملامح كثير من الزعماء والأدباء، أمثال محمد علي وأحمد عرابي وطه حسين، وغيرهم الكثيرين، ولا أستطيع إغفال هياكل فرح بنت العمدة وعجين الفلاحة المصرية، والتي أكاد أستمع إلى حوارها لولا يقيني بأنها مجرد تماثيل تخفي ثيابها أرواحا غير ناطقة.

اتجهت إلى المتحف متنحيا عن مبانيه ولوحاته وإبداعاته، ناشدا ركنا نائيا بحديقة توحي لك بأنها اقتطعت من حدائق بابل أو منتجعات سويسرا، حديقة يندر فيها العنصر الآدمي ومعظم روادها من الطيور والعصافير، اصطفيت طاولة في مكان مشمس تظلله الأشجار وتحيطه الورود، تم هذا بعد استئذان العصافير وبإذن عم آدم، الرجل الأسمر في زيه الأحمر الذي يشرف على المكان، والذي تحمل ملامحه أصالة جنوب مصر وطيبة أهل النوبة، كما كانت ابتسامة أسنانه ناصعة البياض تعكس صفاء نفسيا يهبك راحة وطمأنينة تملأ الوجدان.

قام الرجل بتجهيز الخلوة وأحضر لي عصير الليمون الأسطورة الذي أدمنته فيما بعد، صرت أول الوافدين إلى المتحف بعد دخول الموظفين، وأحيانا قبل بعضهم، وبالطبع آخر المنصرفين بعد

مغادرة الجميع إلا بعض حراس المتحف وبعض الأصدقاء من العصافير والطيور، وكانت ابتسامة عم آدم دائما في شرف استقبالي، وكان ليمونه الأسطوري يضاعف إحساسي بالراحة ويزيدني تركيزا في استذكار دروسي.

توالت الأيام وتوالت حبيبات الليمون في جوفي، وذات مرة فوجئت بعم آدم يحمل كوبين من العصير، وضع جرعتي على الطاولة واتجه إلى الركن المقابل ليشاركني غيري الليمون الأسطورة، لمحت كتابا يعلوه وجه ملائكي، عيناها يتبارى فيهما اللون العسلي واللون الأخضر أيهما يفيض جمالا وجاذبية، شعرها أسود يتدلى على وجنة من وجنتيها، ليخفي الكثير من بهائها ترفقا بمن حولها من بني آدم، وما يحيط بها من طيور وعصافير، شفة يبطنها خجل وأخرى يغلفها حياء تطوى بينهما ابتسامة خفيفة تتسسل لتزيح الستار عن لؤلؤ مصفوف داخل ثغرها المجدول، خصرها وقوامها رغم جلوسها ينذر بثورة عارمة يحمل راياتها خراط بنات مبدع فنان، الطريف في الأمر أن يمنحها عم آدم رخصة تملك الخلوة المقابلة كما يمنحها حق امتياز شراب الليمون، وصار الرجل يعد كوبين من الأسطورة بدلا من كوبي المنفرد، ورغم لفت نظره أكثر من مرة إلى أن الإتيكيت يوجب عليه تقديم العصير إليها أولا، فإنه كان يصر على البدء بي، ربما لطول العشرة أو

لمزيد من الإعزاز، وربما لمواريث أصولية صعيدية في أفضلية الرجل على الأنثى.

توالت الأيام وتناوبت النظرات والابتسامات، وصرت أتلمس مدى استيعابها لما تطالعه، أستشعر حيرتها حين يستعصي عليها أمر أو مسألة، هممت أكثر من مرة لبدء الحوار وتأهبت عشرات المرات لتبادل الأحاديث، وكنت دائم التقهقر في اللحظات الأخيرة، لا أعلم أَلِحياء مني أم حرص وخوف من خطر التفريط في هذا الإحساس الذي صار جزء من وجداني؟ بل صار كل كياني.

اجتزت التوجيهية والتحقت بكلية الهندسة في جامعة القاهرة، رغبتي الأولى في كراسة التنسيق، شغلني عالم الجامعة وعلوم الهندسة وتطبيقاتها العملية التي حالت بيني وبين خلوتي التي اشتقت إليها كثيرا، وإن كان اشتياقي للخلوة المقابلة يزيد ويفيض، وأصبحت صاحبة خلوتها هي وسادتي الخالية التي ألجأ إليها كلما ضاق بي الأمر، أو تراكمت عليّ أعباء الدراسة.

اقتنصت فرصة اعتذار أحد المحاضرين وأسرعت متجها إلى المتحف قبل ساعات انتهاء العمل، ليستقبلني عم آدم استقبال الفاتحين، وتستقبلني العصافير بتغريدات تمزج بين الغناء والعويل،

بين الترحاب والتبكيت، بعد تناول عصير الليمون وتجاذب أطراف الحديث مع عم آدم، وإدامة النظر إلى خلوتها المهجورة دون جدوى، اضطررت إلى المغادرة بعد سماع جرس انتهاء ساعات العمل، وقد انتابني شعور بنزع الحبل السري الذي كان يربط دقات قلبي وفؤادها، مرت السنون وانتهيت من دراستي وتفوقت في مجال عملي، وصرت أمثل الجامعة في كثير من المؤتمرات، وكان آخرها مؤتمر بمدينة الضباب اللندنية، وفي آخر أيام المؤتمر تمت دعوتنا لمتحف الشمع، مدام توسوي، الذي قادني إلى تجرع أحلى الذكريات في المتحف الزراعي.

في اليوم التالي لعودتي إلى مصرنا الغالية، عبرت الشارع متجها إلى مدام توسوي المصري، متحفنا الجميل، اتجهت إلى الحديقة قاصدا خلوتي وظلال شجرتي، وللأسف لم أجد إلا أطلالا من الإهمال واللامبالاة، حتى العصافير صارت تغني في صمت، اجتذبت كرسيا واتجهت إلى مكان خلوتي وجلست بعد نفض ما عليه من أتربة، وجاءني شاب يسألني عن مشروبي، سألته عن عم آدم وأفادني: البقاء لله.

ورغم أن الحدث يستدعي قهوة سادة، طلبت ليمونا إحياء لذكرى الرجل رحمة الله عليه، حاولت شرب الليمون الذي ضاعت ملامحه وفقد متعة مذاقه.

هممت بالانصراف، وإذا بطفل يداعبني بلعب الكرة، وخلال مبادلته المداعبة حضرت أمه جاذبة يديه، وقبل انصرافها تلاقت أعيننا، إنها هي، وسادتي الخالية، من أنت؟ ما اسمك؟ أين كنت؟ لماذا لم تسأل عني؟ لماذا لم تكلمني؟ لماذا لم تستجب لنظراتي وابتساماتي؟ لماذا هجرت خلوتك التي طالما احتفظت لك بها؟... أسئلة كثيرة سمعتها لم تنبس شفتاها بها، وتذكرت مقطع أغنية العندليب "سمعت منها كام كلمة.. ماقلتش منهم ولا كلمه". جذبها ابنها وهي ما زالت ملتفتة العنق تتملقني نظراتها وتودعني بابتسامة يعجز معجم العرب عن ترجمتها، ابتسامة تحمل فرحة اللقاء في غشاء اللوم، تحمل عتاب السنين ولهفة الشوق، الحسرة مع الدهشة، السباب مع الغبطة، الهجاء مع التمني، ابتسامة وداع تعزف ألحان تأبين حب لم يَحْبُ، ابتسامة تسلبني تأشيرة دخول المتحف مرة أخرى، لتشيع نظرتها الأخيرة قبل اختفائها أحلى وأعذب الذكريات، ويقام سرادق عزاء... لطفولة حب.

أنا... وهو... ضمائر مختلفة

في حفل متواضع يضم أمي وأخواتي والمقربين من الأصدقاء، تلقيت التهاني بمناسبة تخرجي في كلية الصيدلة بتقدير امتياز، وقد زاد من مباهاة أمي وفخرها بولدها حصولي على أعلى الدرجات لأكون أول دفعتي، تأهبت لانضمامي إلى هيئة التدريس بكادر الجامعة، إلا أنني فوجئت بتعيين الثاني على الدفعة دوني بحجة أن الكلية في حاجة إلى مدرس للبكتريولوجي، وكانت هي المادة الوحيدة التي فاقني فيها زميلي بفارق نصف درجة، لم أتظلم ولم أبال، فأنا أميل إلى التطبيقات العملية وأمقت التدريس النظري.

وعلى الرغم من ترشيحي لأكثر من شركة أدوية كبرى، فضلت أن أخوض العمل الخاص، بتأسيس مصنع صغير لإنتاج الأدوية الأكثر انتشارا، وفي أقل من ثلاثة أشهر كنت قد انتهيت من التأسيس، مستعينا بما تركه لي أبي رحمة الله عليه من ميراث، ومدعما ببعض أموال أمي أطال الله عمرها، ورغم قصر مدة إنجازي للمصنع فإن دوامة التراخيص واشتراطات الدفاع المدني قد أجلت الافتتاح لما يزيد على خمسة أشهر أخرى، وكان من

الممكـن مضـاعفة هـذه المـدة لـولا اسـتعانتي بأحـد الأصـدقاء المخضـرمين، العـالمين بـدهاليز الحكومـة وطرقـات هيئاتهـا وأدراج مكاتبها.

المدهش أنـه بعد عمل مضـن وتفـان فـي عمل التركيبـات المثلـى لمعالجـة الـداء، فوجئـت بفشـل ذريـع فـي تسـويق منتجـي وشـعرت بخيبة أمل، إذ إنني لا أستطيع مضاهاة أسعار الشركات الأخرى، على الرغم من أن هامش الربح لا يتجاوز ١%، وجاءت الطامة الكبرى حين تسلمت خطابا من مصلحة الضرائب تطالبني بمبلغ يفوق كل إيراداتي.

وفى أحد لقاءاتي التسويقية في مستشفى الدكتور عوني، دار بيننا حوار أبويّ حول أزمتـى الماليـة، وكـان الرجل يقدرني كثيرا ودائم الثناء عليّ، وصارحني: يا بني مشكلتك مشكلة ضمير، ولن تفلح في منافسة الآخرين، فغيرك يكتفى بـ١٠% من المادة الفعالـة، في حـين أن منتجـك يفـوق الـ٩٠%، وبالتـالي تفـوق تكـاليف إنتاجـك أضـعاف مـا يتحملـه غيـرك، ولـتعلم أن الأدويـة التـي أبتاعك إياها باهظـة الـثمن، ولكنـي أسـتعين بهـا للمرضـى المميـزين، مرضـى الخمس نجوم... لدي لك عرض ربما تكون فيه الإفادة لك ولي وللبشرية فيما بعد، فأنا منذ فترة أبحث في إمكانية استبدال جزء

من ضمير إنسان مع شخص آخر، ولدينا هنا في المستشفى جراح مبشر جدا، ولكن مشكلته غفلة ضميره التي تحتاج نوبة صحيان، فلنستبدل جزءا من الضمائر بينكما، ولتعلم أن هذه التجربة تستمر لمدة عام واحد فقط، وتنتهي بنوبة صرع خفيفة، بعدها يعود كل إلى أصل ضميره.

بعد تفكير عميق انتهيت لخوض التجربة، فليس هناك ما يفوق ما أكتنزه من خسارات، الغريب في الأمر موافقة الجراح على خوض التجربة مقابل مبلغ من المال، ورغم أن العملية لا تستغرق نصف ساعة، فإنها تتطلب تخديري بشكل كلي لمدة تزيد على ثلاث ساعات، تمهيدا لتجميع ضميري في منطقة ملاصقة للكتف اليسرى، والمدهش انصراف كل منا بعد الإفاقة دون معاناة من ألم ودون آثار لجرح أو ندبة.

خلال عام التجربة كان جميعنا يحرص على متابعة أطرافها، وعلى رأسنا الدكتور عوني الذي كان يدون ملاحظاته بشكل دوري، قبل انتهاء العام بيوم واحد استدعاني الدكتور عوني لتقييم التجربة والوقوف على تجديدها من عدمه، كان الدكتور عوني في انتظاري حين وصولي بسيارتي الفارهة المرسيدس إس ٥٠٠، ولم تمض دقائق إلا وقد هلت علينا سيارة بي إم دبليو أحدث موديل،

ليسرع سائقها بفتح بابها الخلفي لنستقبل الجراح البارع الذي أصبح أحد عظماء الجراحة في الوطن العربي. بعد حوار عارض مع الدكتور عوني حول شركاتي المتعددة وبنوك الدم ومشاريعي المختلفة، توجهنا إلى غرفة العمليات مرحبين بتجديد التجربة، وإثر انتهاء نوبة الصرع استقبلنا نوبة المخدر لنبدأ عاما جديدا في عالم التجربة.

خلال هذا العام أصبحت محتكرا لسوق الدواء، بل امتدت نشاطاتي لقرى سياحية ومدن عمرانية ومشاريع أخرى، وقد ذاعت شهرة الجراح وتخطت الوطن العربي وأصبح من أبرع جراحي العالم، قبل يوم من انتهاء العام اتجهت إلى الدكتور عوني ناشدا جرعة أخرى من المخدر، إلا إننا استقبلنا مكالمة هاتفية من جراحنا العظيم تفيد تعذر قدومه، نظرا لوجود عاصفة ثلجية فوق منطقة أوروبا تعوق طائرته الخاصة عن الطيران، ما اضطرني لمغادرة المستشفى مع تحديد إقامتي بالمنزل استعدادا لترقب نوبة الصرع المنتظرة.

وللأسف الشديد فقد هاجمت النوبة جراحنا الجهبذ في أثناء وجوده مع لفيف من أئمة الجراحة في العالم. اتجه الجراح إلى مستشفى الدكتور عوني فور عودته، وإن كانت تلاحقه شهادة عالمية من

جمعية الجراحة تحظر عليه الممارسة وتشطب اسمه من كشوف الجراحين، كما تشيد بمجهوداته وإبداعاته في عالم الجراحة.

ظل الجراح والدكتور عوني يحاولان الوصول إليّ دون جدوى، فأنا غير موجود بالمنزل أو شركاتي المتعددة، وجميع هواتفي مغلقة أو خارج الخدمة، وفي اليوم الثالث فوجئ الدكتور عوني بصورتي تتصدر جميع الصحف مقترنة بخبر القبض على رجل الأعمال الشهير، إذ إنني مع أول صحوة لضميري ساقتني قدماي إلى النائب العام لأدلي باعترافات تخلدني في زنازين السجون، مع باقة من نجوم المجتمع من وزراء ونواب مجالس ورجال أعمال ومديري بنوك وأطراف غالبا ما تراها بالقصر الجمهوري، الطريف في الأمر مطالعتي لقصص القبض عليّ، ومجهودات الشرطة والبحث الجنائي في متابعتي والإيقاع بي، لم تمض ساعات من وجودى بالحجز إلا وطعنني أحدهم طعنات لا يجدي فيها إلا ملك الموت.

وأنا ألفظ الشهادة مع أنفاسي الأخيرة، حمدت الله أن أهداني تفكيري إلى تسجيل كل اعترافاتي على "فلاشة" وتركها مع مأمور السجن، ليخط هو نهايات الرواية، هل يراعي في سردها ضميري

أم ضمير الجراح؟ كما حمدت الله كثيرا أن تكون نهايتي بضميري أنا، وليس ضميره هو، إذ أنا وهو، ضمائر مختلفة.

هرشة دمااااغ

أقسم بالله العظيم أن أحافظ مخلصا على النظام الجمهوري، وأن احترم الدستور والقانون، وأن أرعى مصالح الشعب رعاية كاملة، وأن أحافظ على استقلال الوطن ووحدة وسلامة أراضيه.

بعد الانتهاء من أداء القسم أمام اللجنة الدستورية العليا، قمت بتسليم رئيس الحكومة مكتوبا يفيد قيامي بإجازة لمدة شهر، على أن يتولى سيادته أمور حكم البلاد لحين عودتي من الإجازة، حرصت على مغادرة المحكمة الدستورية من باب جانبي، حيث كان آخر عنقودي في انتظاري بسيارته السوراتو سوداء اللون، وقد قام بتجهيز ثمانية وعشرين قناعا، حيث خصصت قناعا لكل محافظة من محافظات مصر السبع والعشرين، وبدأت رحلة الأقنعة، أتفقد في كل محافظة جميع شؤونها من طرق ومواصلات عامة وتوافر للسلع ورغيف العيش، وكذلك المحليات ومجالس الحي والشهر العقاري ومستوى التعليم وخدمات الصحه في المستشفيات العامة، كما حرصت على المشاركة في درس ديني بأحد المساجد وحضور عِظة في إحدى الكنائس، وغالبا ما أختتم يومي في كل محافظة بمحاولة بائسة لعمل محضر لجميع

الهيئات، وقد تبددت كل محاولاتي للقاء أحد نواب مجلسنا الموقر في كل محافظة.

تعددت الزيارات وترعرعت الإحباطات، وإن تباينت أولويات المشكلات في كل محافظة، إلا أن القاسم الأشمل كان انتحار الضمير المصري واضمحلال الأخلاق والعمق الديني رغم شيوع المظاهر الشكلية، إسلامية كانت أو مسيحية، بعد انتهاء شهر، سبع وعشرين يوما في المحافظات وثلاثة أيام انتقالات إلى المحافظات النائية، عدت إلى قصر الرئاسة لأتقدم بثاني مكتوب بعد طلب الإجازة، وكان يحمل مد الإجازة إلى أجل غير مسمى، أو بشكل أوضح كان يحوي بيانا بالتنحي. أثار قراري جدلا كبيرا لدى رئيس الحكومة وجميع المنتفعين من حوله، وأثاروا مخاوفي من تبعات هذا القرار، من نشوب حرب أهلية تلتهم الأخضر واليابس في البلاد.

اضطررت إلى إرجاء القرار والاحتفاظ به في درج المكتب، والارتضاء بالمنصب والاستعداد لمهامه التي أعلم مسبقا أنها مهام انتحارية ستحصد رؤوسا كثيرة، والأغلب أن يكون رأسي هو أول الغلة.

استهللت مهام الرئاسة بالبيان التالي:

يكون مجلس رئاسي يضم نخبة من الساسة ورجال الاقتصاد ووزراء الدفاع والداخلية والخارجية ومدير المخابرات العامة وشيخ الأزهر والبابا، لوضع السياسات والخطوط العريضة لاستراتيجية موحدة للبلاد، تسخر لها جميع أجهزة الدولة.

حصر حصانة النواب على جلسات المجلس تحت القبة، أو حال انعقادها في أي مكان آخر... كذلك حصانة القضاة وحصرها في مسرح قاعات المحكمة.

إلغاء المحليات ومجالس الحي، على أن تكون هناك كراسة مفصلة لشروط أبنية كل حي، وتقوم الدولة بمصادرة أي مبان مخالفة لهذه الشروط دون تصالح أو تغريم، ويتم بيعها لصالح مشروع العشوائيات.

إلغاء جميع الهيئات الرقابية وحصرها في جهاز واحد يتبع المخابرات العامة.

إلغاء جميع المستشارين والاستشاريين والمد الحكومي لفوق الستين، وإعطاء الفرصة للعقول الشابة لقيادة مسيرة التنمية، على

أن توفر الدولة معاشا مناسبا للمتقاعدين وتراعي توفير الخدمات المعيشية والترفيهية لهم بأسعار رمزية.

ضرورة ربط الأجر بمعدل الإنتاج، على أن يكون هناك حد أدنى للأجور وكذلك حد أقصى، مع توفير نظام ضريبي تصاعدي.

إقامة مصنع لإعادة تصنيع مخلفات القمامة في كل محافظة، مع إلغاء صناديق القمامة من الشوارع وتخصيص شركات تابعة للدولة، تقوم بتجميعها من البيوت وتوريدها إلى المصانع.

تجريم الدروس الخصوصية وإلغاء مراكز الدروس الخاصة، وكذلك إلغاء العيادات الخاصة، مع توفير نظام تأميني شامل العلاج والدواء لكل مواطن.

تغليظ عقوبة الرشوة إلى الإعدام، وتطال هذه العقوبة كلا من الراشي والمرتشي، ويلحق بهما كل متاجر بقوت الشعب أو من يبيع سلعا فاسدة أو منتهية الصلاحية.

الإعدام لكل من يحمل سلاحا من دون ترخيص، سلاحا ناريا كان أو سلاحا أبيض.

إلغاء المجالس الحقوقية والجمعيات الأهلية، على أن تقوم الدولة بتوفير جميع الخدمات الأساسية لمواطنيها على السواء.

إعادة محاكمة رموز الفساد، محاكمات ثورية شعبية.

اتباع نظام مروري صارم، تغلظ مخالفاته على القضاة ورجالات النيابة والشرطة وممثلي إنفاذ القوانين.

الإعدام لكل من يلوث مياه النيل، سواء بإلقاء النفايات أو الحيوانات النافقة، أو تلويثها بمياه الصرف.

ضرورة البت في القضايا بدرجاتها المختلفة في مدة لا تتجاوز سنة، بعدها تحول القضية إلى مجلس الدولة للبت فيها في مدة أقصاها شهران.

قصر مدة الرئاسة على خمس سنوات غير قابلة للتجديد أو المراوغة، ويشمل هذا البند جميع الرؤساء... جمهورية، أندية، هيئات، أجهزة، بنوك، إلخ...

عقب انتهائي من البيان وقبل عودتي إلى قصر الرئاسة، خرجت الجموع تطالب برأسي، وعلمت بعد ذلك أن أعواني في البلاط الرئاسي والحكومة كانوا أحد أطراف الفتيل المتشابكة جدائله، ولم

تمض ساعة إلا وكان طلب التنحي منتشلا من الدرج ويتصدر كل شاشات الإعلام المرئية. خرجت في هدوء وحذر مغادرا القصر من باب جانبي مرتديا القناع الثامن والعشرين لأجد ابني في انتظاري بسيارته السوراتو السوداء.

فص ملح وذاب

في صباح يوم من أيام الأقصر الباردة، والتي تحمل نسماته رطوبة الصعيد القاسية، اخترقت سيارة شرطة الآثار طريق الجسر الجديد متجهة إلى الدير البحري الذي يسكن البر الغربي لمدينة الأقصر، وفي هدوء تام وأدب جم تم القبض على الأنبا إسطفانوس القائم على خدمة الدير بتهمة تهريب الآثار، وتم استياقه إلى مركز شرطة الآثار التي علمت بتهريب تمثال من الدير، عن طريق مؤتمر صحفي بأحد بلاد المهجر.

تم التحفظ على أبينا إسطفانوس حتى حان موعد جلسة محاكمته، وأودع قفص اتهام محكمة الأقصر الجنائية التي كانت تضج بجميع أهالي الأقصر، مسيحييها ومسلميها، رجالها ونسائها، أطفالها وشيوخها، التزم الجميع الصمت بمجرد ظهور القاضي على المنصة، حيث بادر بالنداء على إسطفانوس ميخائيل صليب، موجها له تهمة تهريب تمثال أثري إلى الخارج، بما يمثل جريمة وانتهاكا لقانون الآثار المصري. تبارى عشرات المحامين للدفاع عن أبينا، إلا أنه توجه لهم بالشكر والامتنان مفضلا تولي دفاعه عن نفسه بنفسه.

بعد أداء اليمين استهل مرافعته باسم الآب والابن وروح القدس (إله واحد، آمين): سيدي القاضي، في أثناء قيامنا بعمل بعض التوسعات بالدير، فوجئنا بتمثال يهل علينا من مكان الحفر، وبعد جلسة مشاورات مع خدام الدير، قررنا الاستعانة ببلدياتي الدكتور رامي نواس، والذي عرض علينا مقايضة التمثال بمبلغ تتيمنه أصفار ستة، وعليه تم استلام المبلغ اتباعا لمنطق "الحي أبدى من الميت" وتلك الكراس تحوي كشف حساب يشمل جميع أوجه الصرف والإنفاق، فقد تم بناء مستشفى ومدرسة لأطفال البر الغربي، كما تم تأسيس مسجد صغير للإخوة المسلمين الذين يضطرون العبور إلى البر الشرقي كل جمعة لأداء الصلاة، ومنعا للعزلة تم تشييد الجسر الجديد الذي استقلته سيارة الشرطة حين جاءت للقبض علينا، وقبل بناء هذا الجسر لم يكن هناك سبيل للوصول إلى المدينة (البر الشرقي) إلا عن طريق المراكب الشراعية، وأجزم لسيادتكم بأن نصيب الدير من هذا المبلغ الضخم لم يتجاوز بضع مئات من الجنيهات، قيمة حمولتين من الطوب لترميم سوره المتهالك، وقد تكبد الخدام مشقة الترميم دون الاستعانة بأي عمالة.

وأضاف الأنبا أنه لا يعلم شيئا عن مسار التمثال منذ أن قام بتسليمه للدكتور نواس.

بعد مداولة طالت سويعات، جاء حكم القاضي كالتالي: بناء على بنود الدستور ومواد القانون رقم كذا وكذا من قانون الآثار المصرية، نحكم بخمس سنوات حبسا للمتهم الأول المتغيب رامي نواس سيدهم، وعلى رجال الشرطة سرعة إحضاره والقبض عليه، كما حكمنا على المتهم الثاني إسطفانوس ميخائيل صليب بخمس سنوات مع الشغل والنفاذ.

نزل مدلول الحكم كالصاعقة على جميع الحضور، وضجت المحكمة والأقصر كلها بصيحات الاستنكار والاحتجاج، ولم يتمكن القاضي من مغادرة المحكمة إلا بعد تدخل أبينا إسطفانوس الذي أوضح للجمهور أن الحكم جاء إنفاذا للقانون، وأن القاضي لا حيلة له إزاء قسوة مواده العمياء.

تم ترحيل السجين إسطفانوس إلى سجن الأقصر الذي أصبح مزارا لجميع أهالي الأقصر ومحافظات الصعيد المجاورة، كما منح السجن لقب الخمس نجوم لما يستقبله يوميا من أشهى الطعام وألذ المأكولات، وتمنى حراس السجن وضباطه وسجناؤه دوام حبس الأنبا إسطفانوس إلى الأبد. لم تمض أسابيع إلا واستقبل مأمور السجن مظروفا يزف خبرا سارا ويحمل في طياته كثيرا من الألم، حيث صدر قرار عفو رئاسي عن الأنبا إسطفانوس موقع من

رئيس الجمهورية. تجمعت الأقصر عن بكرة أبيها أمام السجن، وفي زفة مهيبة تعلوها الزغاريد والدفوف، وتودعها من خلف الأسوار الدموع والحسرات، أحاط الأهالي بمأمور السجن مصطحبا أبونا إسطفانوس في سيارته الخاصة متجها إلى الدير، مخترقا طريق الجسر الجديد، وفي خلال دقائق أنهى رجال الشرطة الذين كانوا يترقبون وصول الأنبا عند بوابة الدير جميع الإجراءات.

والمدهش في الأمر إضافة مزار الدير إلى البرنامج السياحي بالبر الغربي، وأضحى السياح يستفسرون عن معبد رمسيس الثاني، ومقبرة حتشبسوت، ودير الأنبا إسطفانوس، وما زالت شرطة الآثار تترقب وصول الدكتور نواس الذي اختفى عقب مؤتمره الصحفي، وإن كانوا يعلمون علم اليقين أنه خرج ولم يعد، وأن الدكتور نواس... فص ملح وذاب.

في احتفالية جميلة هادئة احتضنتها دار الأوبرا ذات الصبغة اليابانية، اصطحبت زوجتي العزيزة للاستمتاع بحفل جميل لمطرب الفن الأصيل، علي الحجار، وذلك احتفالا بمرور عشرين عاما على زواجنا، ورغم شياكة الأداء وبهاء المكان، انتابتني غصة حين تذكرت دار الأوبرا القديمة التي لا يضاهي جمالها إلا أوبرا باريس وأوبرا فيينا، والتي طالتها نيران الإهمال والتخلف والاختلاس، وقد تبخر هذا الإحساس بفضل عذوبة صوت الحجار واحتضان يدي لأصابع زوجتي الجميلة، كان من المفترض اصطحاب زوجتي إلى مطعمنا المفضل بحي المهندسين، إلا أنها فضلت الاتجاه إلى مكاننا المعهود لتناول سندوتشات الشاورما تجرعا لذكرياتنا إبان فترة الخطوبة.

عدنا إلى منزلنا الأنيق، يساور كل منا طموح استئناف الاحتفالية بليلة جميلة دافئة، دخلت زوجتي حجرتها وإذا بها تصيح وتصرخ: "الحقني... الحقني". عدوت إليها في وثبة واحدة، وما زالت تولول: "اتسرقنا، كل مصاغي وفلوسي اتسرقوا، حصيلة هدايا ومشتروات عشرين عاما راحت".

هدأت من روعها وأجلستها على مقعد تحيطه دموعها، اتصلت بأخي ضابط الشرطة ذي الرتبه العالية الذي نصحني بترك الحجرة وعدم لمس الدولاب أو أي متعلقات أخرى.

لم تغفل أعيننا لحظة حتى الصباح، حضرنا أخي في ساعة باكرة، مصطحبا رئيس المباحث ومجموعة تحري البصمات التي رفعت جميع البصمات، ولم يفتهم أخذ بصماتي أنا وزوجتي، واستفسر أخي عمن ارتاد منزلنا في الأيام الأخيرة، وكان ذلك من نصيب عامل التليفونات والكهربائي، وإن كانا لم يلجا هذه الحجرة، وسألنا أخي عن الشغالة، وجاء رد زوجتي قاطعا، بثينة في إجازة منذ أمس وهي في زيارة لبلدتها تنتهي بعد يومين، وقالت مستطردة إن بثينة تعتبر من أهل البيت، فهي تخدمنا منذ ست عشرة سنة وهي مثال للأمانة والاستقامة.

استفسر رئيس المباحث عن اسمها بالكامل، فناولته صورة بطاقتها التي احتفظت بها سعيا لمعاش شهري لها من إحدى الجمعيات الأهلية. في اليوم التالي علمنا أنه تم القبض على بثينة وعاملي التليفونات والكهرباء، اتجهنا إلى قسم الشرطة أنا وزوجتي وأولادي، وفوجئنا بوجود أخي الرتبة يستجوب بثينة، وقد ضمت ملامح وجهها بصمات كف أخي ولكمات رئيس المباحث، هذا

وقد استبدلت بجسدها كتلة من المَهانات، انهارت زوجتي من منظر بثينة ودمعت أعين أولادي، وأخذتني الحيرة حين أمر أخي بإخلاء سبيل العاملين والإبقاء على بثينة في الحبس الاحتياطي.

في اليوم التالي اتجهت إلى قسم البوليس وتنازلت عن البلاغ وحررت بثينة من محبسها، وذلك استجابة لصوت ضميري وإذعانا لضغوط زوجتي وأبنائي، كانت خسارتنا المادية كبيرة، وكذلك خسارتنا لبثينة التي أبت مداومة العمل لدينا، وإن جاءت صدمتي في قسوة أخي هي الخسارة الأكبر والأفدح، ولا أخفيكم سرا أنه شاب علاقتنا كثير من الفتور يكاد يبلغ القطيعة، هذا وقد منحته زوجتي لقب "ضيف غير مرغوب فيه".

استعوضنا الله وتقبلنا قدرنا، بدت زوجتي أكثر هدوءا بعد استقبالها الهدية العشرين لزواجنا، والتي لم تشملها خزينة الدولاب، حيث إنها كانت لا تزال تسكن جيبي، مرت أسابيع وشهور وإذا بمكالمة تليفونية من رئيس المباحث يطالبنا بضرورة الحضور، توجهنا على الفور إلى القسم لأجد أخي في استقبالنا، اصطحبنا إلى حجرة المأمور في ظل تجاهل متعمد من زوجتي لرد تحيته، وفتح لفافة كبيرة وأشار إلى زوجتي، هل هذا كل مصاغك؟ هل ينقصه شيء؟ قفزت زوجتي فرحا وكادت تعانقه، ونبست بكلمات مبهمة

إبهام الفرح، بعد إنهاء الإجراءات واستلام المصوغات فوجئنا، في أثناء خروجنا، بشعبان مكوجي المنطقة وبثينة خادمة العمر في ركن بعيد، تجمع أياديهم أساور القيد وتملأ أعينهم دموع الخزي والندم.

قادنا أخي إلى السيارة، واستفسرت منه عن ملابسات وأسباب ارتيابه في الشغالة وعلاقتها مع المكوجي، أجاب: رغم أن هذا شغلنا وشأننا إنما دعني أوضح لك، عندما تتناول جريمة يجب البحث عن الحلقة المفقودة، وأحيانا نبحث عن الحلقة الزائدة والتي جاءت جلية في عدم وجود أي بصمة لبثينة داخل الحجرة، رغم تنظيفها إياها في اليوم السابق، دليل على حرصها في طمس أي بصمات تشير بأصابع الاتهام إليها، وعندما تتهم المرأة فعليك بالبحث عن العشيق والعقل المدبر.

التفت أخي إلى زوجتي مهنئا، وصرح معاتبا: ظلمتموني، وإن كان الظلم سيئ الأخلاق، فأنا على يقين أن ظلمكم ناتج عن حلمكم، والحلم سيد الأخلاق.

قاطعته مرددا: والعفو شيم الكرام يا أخي الكريم.

استأذنكم في إنهاء القصة، إذ إننا بصدد إعلان حالة الطوارئ، لانشغالنا الشديد بتجهيز مأدبة تليق بأخي العزيز، وأسرته المصون... ولم تنس زوجتي شوربة الجمبري التي يعشقها أخي الرتبة.

شمعة وثلاثة عيدان كبريت

لم يمض إلا أسبوع على تقاعدي واحتفالي بعيد ميلادي الستين، اقتحمني شعور عجز وتراخٍ، وتملكني إحساس مرير بالوحدة، أحضرت ألبومات صوري القديمة، وبعد إزالة ما عليها من أتربة، بدأت أتصفح صفحاتها وأتجرع ذكريات ما تضمه من شخوص لم ألقهم أو أرهم منذ سنوات طويلة، استوقفتني صورة تضمني وهزاع ومؤنس وأشرف وسعيد جوهر، أربعة من أعز الأصدقاء المقربين في زمن الجامعة الجميل، وللأسف لم ألقهم منذ ما يقرب من أربعين عاما.

هالتني فكرة البحث عنهم، ولم تكن رحلة البحث شاقة، إذ إن الإنترنت وفيسبوك وواتس آب اختصرت كثيرا من المسافات والأزمنة، لم يمر أسبوع إلا وزودتني ولاء ابنة أخي التي تعمل بإحدى شبكات المحمول، بجميع أرقام الشلة ومحل إقامتهم، اتخذت قرار مفاجأتهم دون أي اتصال تليفوني مسبق، سعيا لمتعة المفاجأة وجمال اللقاء.

بدأت رحلتي بقفل الشلة هزاع، وكان هذا لقبه بيننا إذ كان حاد الطباع، ضيق الأفق، عصبي المزاج. لم يكن الوصول إلى محل

إقامته أمرا عسيرا، رغم تطرف منزله بمنطقة ناهيا بالقرب من الجيزة، حيث إنه ذائع الصيت، منزله كبير رحيب يحيط به سياج متقادم ذو جدران باهتة اللون، وحيث لا يوجد جرس خارجي اضطررت للخبط على الباب ثلاثا حتى فتح أحدهم الباب، وإذ بلحية كثيفة يعلوها وجه ممتلئ وأسفلها كرش كبير يضمه جلباب قصير، ياااه إنه هزاع الذي ضمني بشدة تكاد تفتت ضلوعي عندما أخرجت له الصورة ونطقت له باسمي.

قادني إلى الداخل وأصر على دعوتي لتناول الغداء، لفت نظري وجود أعداد كثيرة من الأطفال تفوق فناء مدرسة في أثناء فترة الفسحة، وهناك بعض السيدات والبنات متوشحات بسواد ذي فتحتين مكان البصر، وعلمت منه أنه قد تزوج أربعا، وهؤلاء هم حصاد السنين من أبناء وأحفاد، وخلال سويعات قادني إلى الطبلية التي تضم كثيرا من الطيور واللحوم، ورغم مُشهّى الطعام لم أقبل عليه إلا قليلا، حيث كان هزاع والحضور من الذكور يتناولون الطعام بأصابعهم، وأدركت أنه لا مكان للملاعق أو غيرها على سفرة الشيخ هزاع، بعد الاسترسال في الحديث وتناول الشاي استأذنت في الانصراف، وراعني بعد الخروج استيقاف أحدهم لي وتوجيه العديد من التساؤلات.

عدت إلى منزلي وحرصت على التخلص من عنوان هزاع ورقم الهاتف، بعد أن اطلعت على إحدى صفحات حياته، أما باقي الصفحات فيعلمها هزاع، وربما رجال مباحث أمن الدولة.

بعد أيام ثلاثة وبعد إفاقتي من صدمة هزاع، بدأت الجزء الثاني من الرحلة متجها إلى شقه قديمة بحي العجوزة، حيث يقيم مؤنس في بيت العائلة، وللأسف لم ألتقِه، بل ما لقيت هو شبح يحمل اسمه. عينان زائغتان، جسد نحيل نحيف، أسنان صفراء وإن كانت غير مكتملة، شعر غير مهذب، ملابس مترهلة، هذا وقد بذلت مجهودا لأعرفه بنفسي وأذكره باسمي، وعلمت منه أن زوجته قد هجرته منذ زمن، بعد أن عجزت عن علاجه وتقويمه، وفي أثناء تناول القهوة وتدخين عدد وافر من السجائر فوجئت به يستخرج من جيبه ما يشبه المسحوق ويقوم باستنشاقه، أصابني الهلع وهممت مستأذنا ولم أنتظر عودتي للمنزل، حيث بادرت بمجرد خروجي بالتخلص من عنوانه ورقم هاتفه، ورغم نوبة الاكتئاب التي انتابتني بعد زيارتي هزاع ومؤنس أصررت على استئناف رحلتي.

وبعد أسبوع وجدتني مضطر للامتثال لتعليمات المنتجع الذي يقطنه أشرف، والإفصاح عن اسمي قبل ملاقاته، وحرماني لذة

مفاجأة اللقاء. اتجهت إلى ما يشبه القصر الذي يقيم فيه أشرف، ووجدته في استقبالي عند بوابة الحديقة، وقد أصبح أكثر أناقة وأوسم وجاهة، اصطحبني إلى داخل المتحف حيث تمتلئ أركان الفيلا بالكثير من التحف الثمينة، لم تكتمل الساعة إلا وانتقلنا إلى حجرة الطعام التي تضم مائدة طويلة تحوي أنواعا متعددة من فاتح الشهية. دقائق وأحضر الطباخ دوقة ممتلئة بشوربة الجمبري، ثم تلاها بكوستليتا وشيش طاووق.

استرعى انتباهي أن أطقم الفضية من الفضة الخالصة، والأكواب كريستال بلجيكي، قادني بعد ذلك إلى ركن بالحديقة يضاهي جماله حدائق فيينا لنحتسي الشاي مع بعض الحلويات الشرقية التي أظنها أخطأت العنوان، حيث إن كل شيء هنا ينتمي للغرب. أصر أشرف على اصطحابي معه إلى مقر شركته، وخلال أقل من ساعة تبخرت دهشتي من ثراء أشرف وترف معيشته، رغم تواضعه علميا وتعثره أحيانا في بعض المواد، حيث انحصرت تعليماته لموظفيه في مراجعة الرشى المدفوعة والأراضي المنهوبة، وحرص أشرف على مكالمة جميع رموز الفساد من مسؤولي الحكومة ومجلس النواب، ليكمل لوحة التباهي والتفاخر أمام صديقه القديم. بعد فترة من التفكير العميق والصراع مع النفس

وجدتني ألقي بعنوانه وأرقام هواتفه مصحوبة بالكارت الذي منحني إياه في سلة المهملات.

ولأنني على قدر كبير من المثابرة والتفاؤل توجهت إلى الأمل الأخير، سعيد جوهر الذي يقيم في أحد الأحياء الهادئة بالتجمع الأول، وقبل عرض الصورة وجدته يصيح: لا أصدق، درش، مش ممكن، مش مصدق...

وعانقني عناق السنين، وفاقت بسمة عينيه ابتسامة شفتيه. هرولت زوجته إلينا على أثر صيحته المدوية، وقام بتقديمي إليها: هذا صديق العمر الذي لم أره منذ عمر.

اصطحباني إلى الداخل، منزل بسيط أنيق، اختيرت أثاثاته بذوق رفيع، قضيت يومي كاملا بصحبة سعيد وزوجته وابنتيه المهذبتين، تجرعنا الكثير من الذكريات وتبادلنا الكثير من حكايات أربعين عاما، ولم يصمت حديثنا إلا حين أداء الصلاة، شعرت أو أشعرني الجميع أنني أحد أفراد العائلة عاد لتوه من رحلة سفر طويلة. قبل مغادرتي استحضر سعيد تورتة وأصر على إضاءة شمعة تواصل صداقتنا بعد غياب طويل، وعند إشعال الكبريت، سرحت كثيرا كثيرا في مستقبل أولادي الأربعة.

يارب اجعل كلا منهم شمعة تضيء لمن حولها، ولا تجعله عود كبريت يحترق، ويحرق جميع من وما حوله.

أم طه تدخل المجلس

في الركن البعيد الهادي، جلست كعادتي أحتسي مشروبي المعتاد، شاي بلبن محلى بالنعناع الأخضر، والذى كانت تمدني به أم طه، حيث ألفت الجلوس بصطحبة، كتاب أتصفحه أو كراس أسطر فيها ما يجود به خاطري من أشعار أو أزجال، وإن ساقني الفكر أحيانا لكتابة بعض القصص القصيرة.

وعلى الرغم من وجود عشرات الأصدقاء كنت دائم الحرص على انزوائي في هذا الركن الذي لا يعلم عنوانه سواي، وأم طه التي كانت تشرف على حجرة ملابس السيدات وتمتلك مشروعا متواضعا، رأسماله شاي وبن وسكر ونعناع أخضر، في ركن صغير من حديقة النادي، ومنذ التقاعد أصبح مقعدي في هذا الركن بمثابة محل إقامة مؤقت حتى يحين موعدي اليومي لممارسة اللعبة البيضاء (التنس) التي كنت أعشقها وأجيدها منذ الصبا، وكنت دائم الحرص على الجمع بين غذاء الروح والممارسات البدنية.

المدهش هو مهارات العديد من الصبية المكلفين بخدمة الملاعب، وكان يتم تخصيص أحدهم لإمدادنا بالكرات في أثناء ممارسة اللعبة، وكانت أم طه لها النصيب الأكبر من هؤلاء الصبية، بهاء وسمير وشريف، ثلاثة غلمان ليس بينهم طه، وعلمت بعد ذلك أن طه كان الابن الأكبر وقد استردته السماء منذ سنوات، كان الإخوة الثلاثة متقاربي الأطوال والأعمار، وكانت ملامحهم كأنها كرابين تشف كل كربونة على من يليها من الأبناء، وكان الثلاثة بمثابة حزمة من المهارات في فنون اللعبة.

مرت السنون، وبدأ رأسمال أم طه في الازدياد وقد تمكنت من اشتراء ثلاجة متوسطة العمر، ليجمع مشروعها الصغير بين الساخن والبارد، وإن كانت الزيادة الساطعة والفرحة العارمة حين استهل الأشقياء الثلاثة طريقهم في المشاركة ببطولات النادي، وفي غضون أشهر معدودة أصبح هناك حجز مسبق للمراكز الثلاث الأولى لأبناء أم طه، التي حرصت على استجلاب دولاب بجوار الثلاجة تحفظ بداخله ما يتم حصده من كؤوس وجوائز.

انهالت عروض أندية الصفوة لاجتذاب حزمة البراعة، وأصرت أم طه وكذلك أبناؤها على عدم ترك بيت العائلة، وقد تم استصدار عضوية عاملة لهم جميعا، بل وتوجت أم طه رئيسا للجنة التنس،

وعلى الرغم من أنها لم تمارسها قط فإن إلمامها بقواعد وفنون اللعبة يفوقنا جميعا. لم يمض وقت طويل إلا وصارت السيدة تهاني السيد على التهامي عضوة فاعلة بالمجلس، وكانت هذه هي المرة الأولى للتعرف على اسمها الفعلي. قامت أم طه باستئجار كافتيريا النادي باسم أختها دعاء، احتراما للوائح النادي التي تحظر على أعضاء المجلس ممارسة أي أنشطة تجارية.

فوجئت بالسيدة تهاني تهل على في ركني الهادئ مصطحبة مشروبي المعتاد، هممت بالوقوف مرددا، بنفسك يا مدام تهاني، قاطعتني بحزم، أنا اسمي أم طه ولن أنسى تشجيعك وإمداداتك لنا من المضارب والأحذية.

تحية لأم طه وتحية لكل أم مصرية تناضل من أجل أولادها، وإن كان وراء كل عظيم امرأة، فوراء كل بطل أم... أم طه.

نهاية وبداية

استجابة لدعوات أمي، تحقق حلم حياتي وتم قبول أوراقي بالكلية الجوية، بعد أن اجتزت بنجاح اختبارات اللياقة البدنية وما تتطلب من كشف طبي دقيق، وكما برعت في قيادة دراجتي البخارية (الموتوسيكل) استطعت التميز في عالم الطيران، وأصبحت أجيد حركات بهلوانية تفوق ما كنت أقوم به بدراجتي البخارية، وفي فترة وجيزة استطعت أن أنال ثقة رؤسائي ومحبة جميع الزملاء، وأصبحت أحد دعائم المهمات الصعبة، وأصبحت ألقب بنسر مصر الطائر.

لم تمر سنتان حتى ألحقت بجهاز التدريب، لأصبح أصغر مدرب عايشته الكلية الجوية، وقد ساهمت مكافآتي المتتالية بإضافة إلى درجة وسامة لا بأس بها، وبنية رياضية يزينها الزي العسكري، في تأهيلي لخطبة إحدى حسناوات الحي الراقي، ولم تمر شهور إلا وانتقلنا إلى عش الزوجية الأنيق، لنبدأ رحلة زواج سعيدة، وإن زادت سعادتنا باستقبال مولودتنا الجميلة ياسمين، وبعد ثلاث سنوات اجتمع الأهل والأصدقاء في حفل بهيج لتطفئ ياسمين

شمعتها الثالثة، وأحتفل أنا ببلوغ سجل طيراني خمسين طلعة جوية.

توالت الشهور وتوالت المهام والمكافآت وزادت النجوم على كتفي، وزانت النياشين دولابي الفضي، وما زاد سعادتي هو عمق ثقة رؤسائي ومحبتي في قلوب تلاميذي، وعقب مهمة انتحارية في عمق سماء العدو، وبعد إنجاز المهمة بنجاح فوجئت بسرب يضم ثلاث طائرات، وظللت أناور وأحاور حتى استطعت إصابة إحداها وإسقاط أخرى، إلا أنني شعرت بهزة عنيفة تطيح بمؤخرة الطائرة، وقد تريثت كثيرا قبل استخدام مظلة الإنقاذ حرصا على هبوطي داخل حدودي المصرية، وإذا بانفجار شديد يعصف بطائرتي، وإن استطعت اصطحاب المظلة إلا أنني اصطحبت معها بعض الإصابات البالغة.

انتقلت إلى المشفى، ورغم الاستعانة بجميع جهابذة الجراحة في مصر، ورغم نجاحهم في ترميم جميع أعضائي، فإنهم اضطروا إلى استبدال ذراعي اليسرى بطرف صناعي.

تغيرت خريطة حياتي، وتم نقلي إلى مطار ألماظة، حيث أسندت إليّ بعض المهام المكتبية، مكثت في هذه الوظيفة شهورا أربعة،

تدهورت معنوياتي حيث قضيت مئة وأربعة أيام في عذاب سحيق، وكنت أراقب تلاميذي في زيهم العسكري يروحون ويعودون، يقلعون ويهبطون، يسترسلون ويؤدون التحية، ورفقا بنفسي تقدمت بطلب للتقاعد، وبعد إلحاح تمت تسوية حالتي مع منحي مكافأة هي الأعظم لنهاية الخدمة.

لازمت منزلي وأصبحت القراءة وياسمين هما شغلي الشاغل، وإن انتابني شعور بتغير ملموس من زوجتي الجميلة، ولأنني لا أهوى ولا أجيد غير الطيران والدراجات البخارية، فضلت عدم الدخول في أي مشروعات تجارية، واكتفيت باستثمار أموالي في إحدى شركات توظيف الأموال، وخلال شهور قليلة استقبلت خبرا صادما، هروب مالك الشركة إلى الخارج، بالطبع بعد تحويل أموالنا إلى بنك بأمريكا اللاتينية في منأى عن الإنتربول.

بعد هذه الصدمة تقهقرت حالتي الصحية وانهارت معنوياتي، وباءت كل محاولات زوجتي الاستعانة بابنة خالتها طبيبة الأمراض النفسية بالفشل، وخلال شهور قليلة كانت زوجتي قد حسمت أمرها بقرار طلب الطلاق، ورغم انهيار معنوياتي وفقدان ذراعي فإنني ما زلت أحوي كثيرا من عزة النفس.

لملمت حقائبي وعدت إلى بيت أمي بعد إتمام الطلاق، إذ كانت الشقة باسم زوجتي. ترددت الدكتورة ولاء ابنة خالة زوجتي أكثر من مرة على بيت أمي، في محاولات بائسة لتطبيبي من حالة اكتئاب حادة، والسعي للإصلاح بيني وبين طليقتي، لم تيأس الدكتورة ولاء، ولم تكف عن المحاولات، حتى بعد خطبة طليقتي لشخص آخر.

أصبحت أقيم بحجرتي وحيدا، ولا أغادرها إلا لقضاء حاجتي، ومحظور لغير أمي دخول الحجرة، وذات يوم استطاع زوج أختي اقتحام الحجرة، ولم أقدر على مقاومته، إذ كانت تربطني به صلة صداقة قديمة، بل في كثير من الأحيان كان بمثابة أبي الروحي بعد رحيل والدي رحمة الله عليه، ظل الدكتور فكري جالسا صامتا يتملقني دون أن تنبس شفتاه بكلمة، وحين اطمأن لهدوئي التام، نهض من مقعده وضمني إليه ضمة استقر على أثرها رأسي فوق صدره دقائق طويلة، ثم وجهني إلى ركن الحجرة قائلا: انظر إلى المرآة، وقبل أن تتفحص ذراعك المبتورة عليك بإحصاء ما أنعم الله به عليك من أعضاء صحيحة، وهبك إياها وحفظها لك... يا بني اعلم أن كل نهاية تليها بداية، حتى نهاية الموت هي بداية لحياة أبدية، وبعد الليل يأتي النهار، لقد خلقنا الله نغفو ونستيقظ، نقع وننهض، نتعثر ونعدو، يا بني أفق من غيبوبتك، وتوكل على

الله وابحث عن بداية، ورغم أن يدا وحدها لا تصفق، فإنني على يقين بأنك تستطيع، وكلي إيمان بأنك ستقدر على جعلها تصفق. كانت كلمات الدكتور فكري بمثابة طوق نجاة، أو صدمة كهربائية اخترقت جميع خلايا جسمي النحيل.

في اليوم التالي وجدتني أقرع باب عيادة الدكتورة ولاء، التي استقبلتني بحفاوة تفوق دهشتها، وبدأنا رحلة الشيزلونج في جلسات متتابعة، وخلال أسابيع قررت الاستغناء تدريجيا عن العقاقير، وبدأنا رحلة علاج مختلفة، إذ قامت بإهدائي صندوقا يحوي مصحفا وأجندة خضراء، وصارحتني بأنني لا أعاني أي أمراض عضوية، وفي حال شكواي من أي أعراض جانبية عليّ التزام الهدوء وقراءة القرآن بتدبر، كما عليّ تدوين كل ما يخص حياتي، بدءا من مرحلة الطفولة، وخلال أسابيع قمت بتسليمها الأجندة مشبعة بسطور تعكس مجريات مراحل عمري، وظننت أنني قد انتهيت من الهوم وورك الذي كلفتني به، وإذا بها تهديني أجندة أخرى مع هوم وورك آخر، لأدون قصة حياتي التي تمنيتها ولم تمهلني الأقدار معايشة أحداثها. تعددت الجلسات وتناوبت الأجندات وكلما انتهيت من قصة، كلفتني بأخرى، فتارة تطلب مني تقمص شخصية محامٍ أو لاعب كرة مشهور أو طبيب أسنان، وتارة أرتدي جلباب فلاح أو أفارول عامل مهني.

عشقت الكتابة وعشقت لقاءات ولاء التي كنت أسعى للانتهاء مما تكلفني به سعيا للفوز بلقائها، بعد مرور شهور عديدة، وفي أثناء وجودي في إحدى لقاءاتي، هل علينا الدكتور فكرى واصطحبني إلى حجرة الكشف، ليفاجآني بهدية هي الأغلى في حياتي، عبارة عن مجموعة قصصية بعنوان "كنوز على شيزلونج طبيبة نفسية"، والمدهش أن الغلاف يحوي عبارة: بقلم مصطفى رشوان.

ظننت في بادئ الأمر أنه تشابه في الأسماء، ولكن تبددت ظنوني حين تصفحتها، وأدركت أن ولاء والدكتور فكري تشاركا في طباعة ما كنت أدونه من قصص، الجميل أن تلقى المجموعة رواجا فاق مخيلة الجميع، ما جعلنا نعيد طباعتها مرة بعد أخرى، ولم يفتني إضافة إهداء إلى شريكيّ المبجلَيْن، وكذلك أمي الحبيبة وابنتي الجميلة ياسمين.

كنت أظن أن هذه مفاجأة عمري، إلا أن ما فاجأتني به ولاء فاق كل الخيال، فإذا بها تطلب خطبتي، ورغم غبطتي التي لا توصف خفت إحساس الشفقة على مريض عليل، وعند مصارحتها بهواجسي، تبددت كل مخاوفي إذ أفادتني بأن مجال دراستها وعملها يجلعها قادرة على رؤية الأشياء بشفافية واضحة، وهذا ما جعلها ترى معدني الأصيل وجوهري النفيس، قبل النظر إلى

ذراعي المصطنعة، والمدهش أن يزف إليّ الدكتور فكري فوز المجموعة القصصية بالجائزة الأولى في أدب القصة القصيرة، وفي حفل يضج بأهل الأدب والفن والثقافة، تقدمت لاستلام درع الجائزة في ظل تصفيق حاد من جميع الحضور، وعلى رأسهم أمي وياسمينتي وولاء وأختي وأبي الروحي الذي همس في أذني: يد واحدة لا تقدر على التصفيق ولكنها تستطيع اجتذاب تصفيق الجميع.

اتجهت إلى المنزل، توضأت وصليت ركعتي شكر لله، بعد أن ضممت جائزتي لنياشيني السابقة، ولم يمض وقت طويل حتى اجتمع جميع المدعوين في حفل زفاف الطبيبة ولاء إلى الطيار العليل والأديب المتعافي مصطفى رشوان، أبي "ياسمين" نوارة قلبي وبونبونة الحفل، وبالطبع لم تأت طليقتي على الرغم من قيام ولاء بدعوتها.

عزيزي القارئ، أستأذن في التوقف عن الكتابة، حيث إنني بنهاية الحفل، أستهل بداية شهر العسل... وقد أيقنت أن كل ليل يليه نهار... وأن كل نهاية لا بد من أن تليها بداية.

الزوجه الثانية وإكسير الحياة

ليله كاملة في ظل غياب زوجتي الثانية التي أدمنتها إدمانا يفوق محتسي الخمور، فقد أصبحت لا أطيق فراقها ولا أرى معنى للحياة دونها، وكيف لا وهي تحرص دائما على تلبية كل احتياجاتي، وبنظرة منها أشبع جميع رغباتي؟ وإنني أشهد أنها تتمتع بثقافات لا حد لها، فما من شأن إلا وافتني فيه بوافر المعلومات وأدق التفاصيل، يا لها من ليلة طويلة قاسية قضيتها وحيدا دون حبيبتي الغالية.

قادتني ذكرياتي إلى ليلة العرس التي توافق عيد ميلادي الستين، وتذكرت مراسم الزفاف، حين اصطحبت زوجتي الجميلة، العروس يتقدمها فلذات كبدي، وقاموا بإجلاسها على المقعد المجاور لي في الكوشة، تملكني الفضول للتعرف على ملامح وجهها، وبادرت برفع الطرحة المصنوعة من سوليفان زاهي الألوان محلى بفيونكة حمراء، تحتضن داخلها صندوقا مدونا عليه "سامسونج"، كان تابلت أحدث موديل.

ومنذ الليلة الأولى من القران أصبحت زوجتي الثانية تلازمني ولا نفترق أبدا، إلا ليلة البارحة، إذ حدث خلل في الشاحن سلب

زوجتي الحياة، تنبهت من رحلة الذكريات على صوت جرس الباب، وإذا بحبيبي عمرو فلذة كبدي وآخر عنقودي يحضر لزوجتي إكسير الحياة، اختطفت الشاحن منه، دخلت حجرتي وأغلقت الباب، احتضنت زوجتي بفرحة مفرطة، وبدأت تغمز بعينيها بعد أن تجرعت إكسير الحياة، أستأذنكم عدم الإزعاج، فأنا بصدد قضاء شهر عسل جديد مع... الزوجة الثانية.

خنجر... وباقة ورد

وصلت لتوي مطار القاهرة الجوي، الذي أصبح يضاهي المطارات العالمية، توجهت إلى الاستعلامات مستفسرا عن موعد وصول الطائرة القادمة من فيينا، والتي تقل صديقي اللدود ديفيد، علمت بتأخر وصول الطائرة ساعة كاملة، توجهت إلى الكافيتريا حاملا باقة الورد التي حرصت على انتقائها بعناية، استعدادا لاستقبال ديفيد وأسرته، طلبت مشروبي المفضل وهو الشاي باللبن مع إضافة نعناع أخضر.

ظللت خلال هذه الساعة أستحضر أول لقاء بديفيد وبدايات الصداقه بيننا، وتبدأ القصة حين انتهيت من دراستي والتحقت بسلاح المشاة بالجيش، وبعد شهرين ألحقت بسلاح الصاعقة وانضممت إلى القوات الخاصة، نظرا لما أتمتع به من بنية رياضية ولياقة عالية. كان يقودنا البطل إبراهيم الرفاعي، وقمنا بأكثر من عملية انتحارية في الضفة الأخرى من قناة السويس فيما عرف بحرب الاستنزاف.

وفي التاسع من نوفمبر عام ١٩٧٢ كُلفت مع ثلاثة من الزملاء بعبور القناة، والتعامل مع دوريى إسرائيلية مكلفة برصد تحركاتنا،

بالفعل عبرنا واستطعنا القضاء على جميع أفراد الدورية، بل واصطحبنا أحدهم كأسير.

وفي أثناء عودتنا، هاجمتنا دورية أخرى بعد أن قامت بتفجير القارب الذي كان يقلنا، استطاع الزملاء الثلاثة الهرب والسباحة في القناة، إلا أنني لم تتح لي هذه الفرصة، إذ إن يدي كانت مقيدة بيد أسيري شارل، ما اضطرنا للاختباء، بعد فترة اقتدت شارل إلى صحراء سيناء شاهرا خنجري في عنقه، وظللنا نغوص في الصحراء أياما ليست قليلة حتى اهتدينا إلى كهف تجاوره عين من المياه الجوفية الناضبة، إلا أنها تضخ ما يكفينا للبقاء على قيد الحياة.

اضطررت إلى تحرير شارل من قيده بعد أن أصيب بضربة شمس، فرغم برودة الصحراء كانت شمسها قاسية وقت الظهيرة، وقمت بمراعاته وتوفير الغذاء له مما توفره الصحراء لنا من أجراذ وأرانب برية، ولكني كنت حريصا على اصطحاب سلاحي الآلي وخنجري بصفة دائمة، تحسبا لأي محاولة هرب.

أصبح هذا الكهف هو مسكننا، ورغم حرصي على أن أحتفظ بعين مفتوحة في أثناء نومي، فوجئت عند استيقاظي ذات مرة بشارل

يشهر الآلي في وجهي ويطالبني بمناولته الخنجر الذي يسكن جيبي، وأصبحت أنا أسيرا لديه، إلا أنني استطعت بعد أيام من استردادهما مرة أخرى، تكررت هذه اللعبة عدة مرات لا أستطيع إحصاءها، وأصبحنا آخر الأمر نضع السلاح بيننا عند خلودنا للنوم.

تحادثنا كثيرا وتبادلنا العديد من وجهات النظر حول الحرب وأحقية اليهود والفلسطينيين في الأرض، وذات ليلة تسلل إلينا في الكهف ثعبان سام ولدغ ساقي، هب شارل فور صرختي وقضى عليه بالخنجر، وانقض على ساقي يمتص السم قبل أن يسري في دمي، ثم أصابتني غيبوبة لا أدري مدتها، وعلمت من شارل أنها استمرت ثلاثة أيام، وصاح: نشكر الرب... نجحنا في إبقائك على قيد الحياة.

تماثلت للشفاء وتوطدت صداقتي مع شارل، وأصبح حديثنا يطال كل الأشياء، العام منها والخاص، وأفادني بأنه يهودي نمساوي متزوج بسيدة نمساوية تدعى أناليزا، وله بنتان، سيليا ونرفانا، كما رويت له عن خطيبتي وأسرتي وأمي التي أتوق شوقا إلى رؤياها.

بعد مرور شهور فوجئنا بسيارة مصفحة على مرمى البصر، وبعد إطلاق أعيرة نارية من الآلي اتجه راكبوها إلينا، تنفسنا الصعداء، وإذا بهم يتبعون الصليب الأحمر، وأفادونا بأنهم يجوبون الصحراء بحثا عن أحياء بعد حرب أكتوبر، قبل تسليم كلينا إلى موطنه، فوجئ الحضور بتعانقنا قبل الوداع، وفاجأني أن شارل هو اسمه الحركي، أما اسمه الحقيقى فهو ديفيد كمنبيكسي.

الغريب أن أستقبل منه رسالة عبر فيسبوك بعد سنوات طويلة ليبدأ التواصل بيننا، ويخبرني أنه غادر إسرائيل وعاد إلى بلدته بالنمسا كما وعدني.

انتبهت إلى صوت الإذاعه الداخلية تعلن عن وصول رحلة فيينا، دفعت حسابي وخلال عشرين دقيقة كنت في استقبال صديقي وعدوي اللدود ديفيد، الذي بادرني بالعناق، واتجهت بباقة الورد إلى أناليزا وسيليا ونرفانا.

شكرني ديفيد وهمس في أذني مازحا: حذار أن يكون داخل هذه الباقة خنجرك القديم.

ثلاثة أصدقاء انتهوا من عقدة التعليم المصري، الثانوية العامة، التحق عبد الحميد بكلية الطب، لأنه أكثرنا تفوقا، والتحقت أنا بكلية التجارة، وتقدم سعيد لاختبارات الكلية الحربية، وأصبح يوما الخميس والجمعة بمثابة احتفالية نأنس فيها بسعيد في يومي إجازته.

بعد مرور عام كانت الاحتفالية ذات مذاق خاص، إذ تخرج سعيد ووضع أول دبورة على كتفيه، سعدنا به وزادت سعادتنا براتبه وباستضافته لنا في نوادي القوات المسلحة ومصايف شواطئها الجميلة، علمنا بعد ذلك بحجزه شقة ضمن مشروعات إسكان القوات المسلحة.

أقر وأعترف بأن الحقد والغيرة بدآ في التسلل إلى نفسي، فأنا ما زلت طالبا في السنة الثالثة، وما زلت أتقاضى مصروفي من والدي كل أول شهر، وقد زاد حسدي وحقدي على سعيد عندما استلم سيارة تسدد قيمتها على أقساط يتم خصمها من راتبه، هذا وقد أضاف دبورة أخرى ليصبح ملازما أول.

تمر الأيام ويحرص سعيد على اصطحابنا بسيارته في أثناء إجازاته المتباعدة، ويصر على الاحتفال بي بحفاوة بالغة بعد تخرجي في شعبة المحاسبة، بعد التخرج تقدمت إلى التجنيد لأداء الخدمة العسكرية، وبعد التدريبات تم توزيعي على كتيبة على الحدود الشرقية، أدركت من الليلة الأولى مدى خشونة الحياة على الحدود، بدءا من النوم في خيمة يتسلل الصقيع داخلها من كل الزوايا، إلى الاستحمام بماء مثلج في برد الشتاء، وإن كانت الخشونة تهون أمام المخاطر والأهوال التي نتعرض لها من عملاء الإرهاب وتجار المخدرات، إضافة إلى العقارب والطريشة المنتشرة حولنا.

عشت شهرا كاملا في ظل هذه المخاطر، وحان موعد إجازتي التي تبدأ الساعة ١٥٠٠ من ظهر الغد، وكان مقررا أن يضم تصريح الإجازة أربعة جنود وضابط برتبة ملازم أول، إلا أن حضرة الضابط اضطر إلى المغادرة قبلنا بسويعات بطائرة خاصة، بعد أن أصيب إصابة بالغة في أثناء مطاردة بعض الإرهابيين المتسللين، تذكرت صديقي سعيد، وشعرت بخجل شديد يسري في كل خلايا بدني، وتمنيت أن أبوح له بما كنت أحتفظ به داخلي، ربما تبرأ نفسي.

في اليوم التالي لوصولي القاهرة، أصر عبد الحميد ومجموعة من الأصدقاء على الاحتفال بي، وإذا بصديق العمر سعيد يهل علينا في زي أبطال الصاعقة، ليدهش الجميع من وقوفي "انتباه" والتعظيم له، مرددا: أهلا ومرحبا بصديق العمر، أهلا ومرحبا... بحماة الوطن.

عيون بهية

في ليلة شتاء باردة من ليالي خواتيم شهر يناير، استيقظت مذعورا على مكالمة تليفونية تزف إلى خبرا أليما، وهو تعرض فلذة كبدي وابنتي الوحيدة بهية لحادث مروع، أعددت العدة ومع أول ضوء حملت حقيبتي وتوجهت إلى المحطة واستقليت القطار مستهلا رحلتي الطويلة، رحلة اطمئناني على بهية، كان القطار متهالكا ورغم ذلك كان يعرف جيدا طريقه على القضبان، حاولت أن أغفو قليلا لكن قلقي وانشغالي على بهية سلب جفوني النوم.

فوجئت وفوجئ الجميع عند تهادي القطار للوقوف في محطة العياط، بجماعات تعد بالآلاف ترتدي عباءات سوداء وعمامات بيضاء تهاجم القطار بجميع عرباته، والغريب أنه كان هناك بعض الركاب يمدون لهم يد العون من داخل القطار، وما هي إلا سويعات وقد تمكن أصحاب العمامات من السيطرة تماما على القطار، وكان من السهل تنحية الأسطى بركة الهارم في العمر، والذي كان يقود القطار لمدة تقارب الثلاثين عاما، كان لا بد من اختيار سائق بديل للقطار لاستكمال الرحلة، وقد تم تفويض أحد

أصحاب العمامات البيضاء لهذه المهمة، وإن كان ليس أذكاهم أو أمهرهم، ولكنه أوفرهم علما وأكثرهم طاعة.

بدأ الرجل الرحلة، لكن جهله بالقيادة وكثرة الفتاوى وتنوع التعليمات جعلته يتخبط كثيرا في القيادة، ما أثار فزع ركاب الدرجة الأولى، وسرعان ما انتقل الفزع للدرجة الثانية والسبنسة، أطلق الجميع صرخة استغاثة مدوية وصلت لآذان مدير أمن محطة مصر الذي كان متأهبا، إذ كان على دراية كاملة بتاريخ الجماعة التي استولت على القطار، وكان على يقين بأن الاستغاثة قادمة لا محالة، وبسرعة فائقة استطاع محاصرة القطار، والقبض على جميع العمامات، وإن كانت بعضها ليست بيضاء ولا ترتدي العباءة السوداء.

تم انتداب أقدم سائق ليصل بالقطار إلى محطة مصر، حيث يتم تعيين قائد آخر للقطار لاستكمال الرحلة، ورغم وجود أكثر من سائق مؤهل فإن جميع الركاب باستثناء قلة قليلة رشحوا مدير أمن المحطة لقيادة القطار، وقد استجاب الرجل وقد خلع ثوب الأمن وارتضى بثوب المهمة الشاقة.

بدأ الرجل بمنهج علمي وتم إصلاح جميع النوافذ ووضع حراسات على كل باب، وأصبح القطار مؤمّنًا تماما، وقبل استئناف الرحلة حرص الرجل على إصلاح القضبان وتغيير المتهالك منها، كما حرص على تجديد العربات والمقاعد، بدأت الرحلة كأنها حفل عرس في ظل زغاريد معظم الركاب، بدا القطار أكثر حيوية وجمالا، ولكن قد تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، إذ يحدث عطب بسيط في لوحة تشغيل القطار، ويضطر الرجل إلى تحصيل فروق تضاف إلى سعر التذاكر لإصلاح اللوحة، إذ أصبحت الخزينة خاوية بعد مصروفات تجديد القضبان والمقاعد.

نستأنف الرحلة من جديد، يشعر الركاب بالجوع والظمأ، يتجهون إلى عربة البوفيه لسد حاجتهم من الطعام والشراب، ولكن للأسف يكتشف الجميع عدم وجود العربة، إذ إن الجميع انشغل بالتجديدات دون الاهتمام بتوفير المأكل والمشرب، استغل بعض كانزي الطعام من الركاب الوضع، وقاموا بتسويق الأطعمة التي معهم بأعلى الأسعار لركاب الدرجة الأولى والثانية موفوري المال، وللأسف لم يتح لركاب السبنسة إلا الحزام الذي يشد على البطن تخديرا لإحساس الجوع، ما زالت الرحلة طويلة وما زالت ثقة الركاب في القائد كبيرة، وثقتي في الله أكبر، أن تصل الرحلة إلى

منتهاها، وأستطيع أن أرسم البسمة على شفاه ابنتي، وأن أزرع الأمل في... عيون بهية.

لقاء حصري... في البرزخ المصري

تلبية لدعوة لا ندري لها داعيًا، تقرر لقاء حصري يضم رؤساء مصر السابقين، ووجهت الدعوة أيضا إلى الملك فاروق الأول، ملك مصر والسودان، وكان الملك أول القادمين في موكبه الفخيم وهندامه الأنيق، تلاه بعد ذلك رجل لا توحي هيئته بالرئاسة، فقد ضم موكبه مجموعة من الميكروباصات كان يستقل أحدها، إنه اللواء محمد نجيب، أول رئيس للجمهورية بعد ثورة يوليو المباركة، وهناك تكتلات بشرية تزف زعيم العروبة وحبيب الملايين جمال عبد الناصر، كما حضر رجل الأمن والإيمان، بطل الحرب والسلام، في حلته الأنيقة التي تخفي تحتها سرواله الفلاحي، إنه الرئيس المؤمن محمد أنور السادات، ورغم أن الاجتماع يخص أهل البرزخ، تم السماح لبعض ضيوف الشرف بالحضور.

لم تمر دقائق إلا وينتبه الجميع إلى أزيز طائرة هيلكوبتر تهبط بجوار الموقع، ويتدلى منها رجل يستقل سيارة إسعاف، وينزوي في أحد أركان القاعة ممددا على سريره الطبي، ويشم الجميع رائحة الغبار بوصول عربة الترحيلات التي تقل رجلا تقيده الأساور،

رجل حمّلته عشيرته أقدار رئاسة الجمهورية، ويتربع على أريكة بعد أن زاد وزنه بشكل ملحوظ في أحد الأركان المظلمة بالقاعة.

قبل إغلاق أبواب القاعة، يشترط الملك فاروق وجوب تسجيل محضر الاجتماع، منعا للقيل والقال وتزييف الأقوال، ويتم استدعاء المستشار عدلي منصور ليقوم بتحرير الجلسة.

أوصدت الأبواب، ونهض الملك فاروق مشيرا بالسكون التام، مرتديا عباءة المعلم نحو تلاميذه، والسيد حين يلاقي عبيده.

أنا الملك فاروق، ملك مصر والسودان، حافظت على أمن العباد، وقاومت التآمر على البلاد، وجعلت من القاهرة منتدى للفنون والثقافات، وكان الجنيه المصري يماثل جنيها ذهبا ويزيد، واقتصادنا المصري يماثل الأمة العربية مجتمعة ويفيض... كانت القاهرة تضاهي باريس ولندره من حيث النظافة واللياقة، وكان القطن المصري رمز الأبهة والأناقة، وما زالت قصوري وقصور أجدادي التي تم نهب معظمها هي خير ما تتباهون به، كما أن قناطر أجدادي الخيرية تعد أفضل متنزهاتكم بغير منازع.

لقد تآمرتم عليّ، وأشعتم أنني عربيد سكير، وأشهد الله أنني لم أحتس الخمر يوما، وأني أداوم على الصلاة، وكنت حريصا على

أداء صلاة الجمعة في مساجد متباينة، ودائما ما أخلع عبائتي مهديا إياها لفضيلة الإمام، تقديرا وتبجيلا للإسلام وأئمة المسلمين، وقد أشعتم إمدادكم بأسلحة فاسدة إبان حرب ١٩٤٨، ولم ينتبه إحسان عبد القدوس قبل نشر هذه الأكاذيب حين كانت هناك حرية للصحافة، إلى أن الجندي يلازمه سلاحه الذي يتدرب عليه قبل الحرب، وإنها كانت مجرد تعليلات ومبررات للهزيمة، وتعلمون جيدا تهاونكم في خوض المعارك، ولا أنكر الخيانات العربية والدعم البريطاني للعدو.

ثم توجه الملك إلى ناصر، لم يعلم عبد القدوس أنه سيكون مصيره السجن الحربي أكثر من مرة في عهدكم، ولتعلم أنه لولا علاقاتي وتدخلاتي لطال بك الحصار في الفالوجة، وقد آثرت سلامة المصريين حين ارتضيت التنحي ومغادرة البلاد... وهأنذا أتجرع إكسير الندم لما آلت إليه أحوال العباد وكرامة البلاد.

ثم توجه إلى الحضور بسؤال مباغت: أين التحفة المعمارية التي شيدها أجدادي؟ أين الأوبرا التي كانت قبلة جميع الملوك والرؤساء وزعماء القارات الخمس؟

لقد تعرضت لماس كهربائي أودى بها، أو ربما جاء الحريق للتستر على مختلس وضيع، أفنى ثروة قومية من أجل مئات الجنيهات... أيها السادة، انتهى لقائي معكم، فأنا أعلم جيدا معاذير السوقة والصعاليك أمثالكم، ممن يسعون لمجد خاص وأطماع شخصية دون الاهتمام برخاء البلاد وصالح العباد، وإني أحفظ مبرراتكم الواهية عن ظهر قلب... أستودعكم الله، السلام عليكم، تحية الإسلام الذي أظنه منكم براء.

نهض الرجل المهلهل، الذي ما زال يحتفظ بصوته الجهوري رغم الوهن الذي نال من الجسد، بل وتسلل إلى العظام.

أنا محمد نجيب، أول رئيس للجمهورية وقائد ثورة يوليو، لقد راهن على وطنيتي تنظيم الثوار الأحرار، وقد حملت رأسي على يدي في سبيل القضاء على الفساد، وتحسين الأوضاع، وتحييد النفوذ الأجنبي، وقد تطورت الأمور بشكل غير محسوب، ونجحنا في إزاحة الملك وإجباره على التنازل عن العرش لولي عهده، الأمير أحمد فؤاد، وبعد رحيل الملك كان من المفترض عودتنا إلى ثكنات الجيش، وتسليم السلطة إلى حكومة مدنية معتدلة، إلا أن المجلس أجمع على الاحتفاظ بالسلطة، وتم منحي قلادة الرئاسة لأكون أول رئيس للجمهورية... استطعنا كسب ود وثقة الشعب حين

اتخذنا قرارات تحديد الملكية، وتم توزيع الأراضي على البسطاء من الفلاحين الحفاة... زادت الخلافات، وبدأت أستشعر الغربة في المجلس، خصوصًا بعد قرار ترقية عبد الحكيم عامر إلى رتبة لواء، وتعيينه وزيرا للحربية، متجاوزا كثيرا من كفاءات قادة الجيش، وتتذكرون جيدا استيائي الشديد من هذا القرار، إذ تقتصر مؤهلات عامر على إخلاصه للثورة وصداقته الحميمة مع ناصر...

اتخذت قراري أخيرا بالتنحي، وإفساح الطريق لناصر ورجالاته، وكما عودنا الشعب الطيب، خرجت الجموع تستنكر القرار وتناشدني العدول عنه...

شعرت بفيض من الفخر والارتياح، وبدأت مرحلة جديدة من الحكم، والتطلع إلى مزيد من النفوذ ومزيدا من القرارات التي تخدم الصالح العام...

تبدلت الأحوال وبزغت الأهوال على أثر محاولة المنشية الفاشلة لاغتيالك يا ناصر عام ١٩٥٤، وأشهد الله أنني لم أعلم المخطط لها، وأنني من تدبيرها براء...

قال ناصر مقاطعا: لا، تعلمون جيدا تآمر الإخوان المتأسلمين، وتعلمون جيدا محاولتهم الاستيلاء على الثورة، ولولا التنكيل بهم وإعدام قادتهم لاستطاعوا التخلص مني، أو الزج بالبلاد في حرب أهلية لا يعلم مداها سوى الله سبحانه، ولولا ملاحقتهم لساد الإرهاب ربوع مصر، ولرُوِّع الآمنون، وانتشرت الفتن... ولو تنازلنا عن السلطة لتكررت مأساة السودان الذي تعرض للانقسام بعد تنحي سوار الذهب.

قال نجيب مستطردا: تعلمون جيدا انتمائي للجيش والوطن، ولكنكم اتخذتم من حادث المنشيه ذريعة، إذ تمت إقالتي وحُددت إقامتي، وظللت في معقلي أتتبع فساد عصابة مجلسكم الثوري الذي تسابق أعضاؤه إلى نهب القصور وسرقة التحف، والاستيلاء على الأراضي، حتى كبائن المعموره والمنتزه تم توزيعها فيما بينهم، وقد تفاءلت كثيرا بانتشار الفساد وتوحش الفاسدين وتكاثر أعداد المعتقلين، ولكن تبخرت كل آمالي حين أدركت أن مراكز القوى لن تسمح بخروجي مرة أخرى، وقد انهارت جميع معنوياتي حين فزت يا ناصر بتأييد شعبي ساحق في استفتاء ١٩٥٦ لتنصب رئيسا للجمهورية دون منافس أو بديل... وتعلم أنني لم أغادر معقلي إلا بعد رحيلك، ليقوم كلامنجي المجلس بالعفو عني بعد توليه الرئاسة.

وقف ناصر شامخا كعادته، وبدأ خطبه مدوية تتخللها فترات صمت، ترقبا لتصفيق الحاضرين:

أنا جمال عبد الناصر، زعيم الأمة العربية، ومفجر ثورتها البيضاء، والعقل المدبر لتنظيم الثوار الأحرار، أنا صاحب قرار تأميم القناة، وقرارات التأميم والإصلاح الزراعي، أنا السد العالي، أنا محرر العمال والفلاحين، أنا الاشتراكية، أنا صاحب قرار أحقية العلاج ومجانية التعليم...

قال محمد نجيب مقاطعا: قرارات توزيع الأراضي على الفلاحين اتخذتها قبل توليك الأمر، وحق العلاج أضر بالصحة والموازنة العامة أكثر مما أفاد، إذ جعلت من المستشفيات العامة مصدر أوبئة وحقل تجارب، أما مجانية التعليم فقد أفرزت الآلاف من أنصاف المتعلمين، لا يفيدون المجتمع ولا يستطيعون النهوض به، وقد اتخذتم من قرار تأميم القناة مجدا يخص شخصكم فقط، دون التطرق إلى تبعات هذا القرار الذي جلب العدوان الثلاثي على مصر، ولولا الإنذارين الروسي والأمريكي لتعرضت البلاد للاحتلال مرة أخرى، كما حدث إبان ثورة عرابي.

ناصر: لا، لم نكن لنسمح بالاحتلال مرة أخرى، وكان الشعب على استعداد للمقاومة ومواجهة العدو، وقد حرصت على تنويع مصادر السلاح، وتكوين تكتلات تشد من أزرنا، كمجموعة عدم الانحياز والتحالفات العربية المتعددة، ولا ينكر أحد جهودنا في تسليح الجيوش بأحدث الأسلحة المتطورة، أنا من جعل من مصر بلدا مستقلا ذا سيادة بعد أن كانت مجرد مستعمرة، أنا من أمنت مجرى النيل، أنا من مددت الجسور إلى إفريقيا وآسيا، أنا من جعلت اسم مصر يدوي في جميع أرجاء العالم، أنا من صنع شموخ المصري لتنحني له هامات العالم، أنا برج الجزيرة.

أشار ناصر بإنهاء كلمته، وظل واقفا لدقائق سادها السكون تحسبا لتصفيق أحدهم، أو هتافات بعضهم...

نهض الرجل الأصلع، بعد أن أطفأ البايب الذي يدخنه واستهل كلامه:

بسم الله... ااا أنا بطل الحرب والسلام.. ااا أنا صاحب العبور، فقد استطعت تلقين العدو درسا ما زال يتجرع قسوته حتى الآن، ااا أنا صاحب أفضل خطة خداع بعد خطة خالد بن الوليد في انسحابه سالما أمام جيوش الروم الجرارة، اااا أنا الذي خاض

حرب علميه تكتيكية ما زالت تعد معاركها مادة إجبارية في جميع الأكاديميات العسكرية... أنا أنور السادات...

قال ناصر مقاطعا: لا تنكر أنني بعد النكسة استطعت إعادة بناء الجيش وتجهيزه بأحدث الأسلحة المتطورة، كما أنني خضت حرب استنزاف كبدت العدو خسائر فادحة، وأسندت قيادة الجيش لفوزي الذي استطاع إعادة بناء الجيش، مستعينا بكفاءات قتالية عالية أمثال إبراهيم الرفاعي وعبد المنعم رياض.

السادات مستطردا: ما زلت تغالط يا ناصر، فقد ذكرتم حرب الاستنزاف ولم تتطرقوا إلى استنزاف جيشنا ومواردنا في حرب اليمن، وقد أطلقتم كلمة نكسة على هزيمة ٦٧ الشنعاء، كما جعلتم سابقا من هزيمة ٥٦ نصرا مبينا وصمودا ليس له مثيل، ولولا انصياعكم خاضعين لشروط وقف القتال، ولولا الإنذارين، لضاعت مصر بسبب عنتريتكم الجوفاء، وبدلا من محاسبة قادة الجيش الذين انتهجوا عشوائية الدفاع عن البلاد، وتنحية عامر وقياداته، خصوصا قائدي الطيران والدفاع الجوي، قمت بتجديد الثقة لصديق العمر مؤتمنا إياه على أهم حصون مصر، حصن جيش الدفاع عن أرض الوطن، بل وجعلته المنوط بالشأن السوري

إبان الوحدة عام ١٩٦١ والتي لم تدم كثيرا، وكانت عنجهيته أحد أوتاد القذف بخيمة الوحدة إلى مهب الريح.

ناصر: أنت وغيرك لم يفطن لأهمية مضيق باب المندب وتأمين حدود أمتنا العربية، إنكم تنظرون دائما تحت أقدامكم، ولا تتطلعون إلى المستقبل البعيد، لقد اتهمتني بالمغالطة، بالفعل هناك مغالطة لا تغتفر، إذ نسبناك للثورة، وقد توجهت إلى السينما مع أول تحرك لنا، بل وحرصت على افتعال مشكلة لتبرهن على وجودك بالسينما، والغريب ألا تسجن، والأغرب أن آتي بك نائبا في نهاية المطاف، فعلا منتهى المغالطة...

السادات: ها أنت تغالط مرة أخرى يا جمال... فاا أنا من استطاع الخلاص من مراكز القوى الموروثة، اا أنا من أسس الجيش على أسس علمية حديثة، اا أنا من استعان بالرجل المناسب في المكان المناسب، أمثال الشاذلي والجمسي، اا أنا من استرد الأرض وقايضتها بحزمة أوراق كامب ديفيد، وإن زادت عليها ورقة روشتة تحمل أسماء أدوية اكتئاب للمدعو بيجين، الذي اعتزل العالم السياسي واعتكف بمنزله إلى أجل غير مسمى... اا أنا صاحب إعادة فتح قناة السويس في ذكرى نكستكم، أنا صاحب الانفتاح العظيم، لنجعل من مصر نافذه تطل على العالم أجمع.

محمد نجيب معلقا: ربما ناصر لا يستطيع التعقيب فقد رحل قبل انفتاح السداح مداح، الذي أطاح بكل القيم والمثل العليا، والذي أفرز سلالات من القطط السمان الذين استباحوا الشعب ومصمصوا دماءه، ولا تنكر أن أخاك وصهريك عثمان أحمد عثمان وسيد مرعي كانا على قمة فوهة الانفتاح.

ساد المكان السكون، وبدأ الجميع يرصدون صوتا غريبا يصدر من الكتلة البشرية التي تعتلي الأريكة، صوت شخير يعلو شيئا فشيئا.

أدرك الجميع تأخر الوقت، وقبل إنهاء اللقاء نظروا إلى السرير الطبي، ربما يريد صاحبه الإفاده بشيء، أو إضافة أي أقوال أخرى.

تأهب الرجل للنهوض، ولكنه خاف أن يُفقده نهوضه تعاطف الشعب، وتؤول نهايته إلى ما انتهى إليه عقيد ليبيا، لازم الرجل فراشه، واكتفى بالإشارة إلى استقدام سيارة الإسعاف، وتجهيز الهيلكوبتر.

فُتحت الأبواب، تقدم نجيب نحو عدلي منصور مستفسرا عن مصير محضر اللقاء...

المستشار عدلى منصور: سأتقدم به إلى الرئيس السيسي، فربما استطاع ترميم الصدع الذي أصاب جدار التاريخ المصري، وربما استطاع الاستفادة من أخطاء الماضي.

انصرف الجميع، وعاد كل إلى برزخه، بعد أن استقلت كتلة الأريكة مكانها بعربة التراحيل، وحلقت الطائرة بعد أن نهض داخلها واقفا صاحب السرير، وحدث ما لا تُحمد عقباه، فقد أطاحت مروحة الهيلكوبتر بمحضر اللقاء بعد أن بدد تيار هوائها جميع الأوراق من يدي المستشار وجعلتها في مهب الريح.... صاح المستشار: وا أسفاه، وا خسارتاه، لك الله يا مصر... لك الله يا مصر... لك الله يا مصر...

فهرس المحتويات

فستان سواريه ٧
البردعة.. واللجام ١٥
النيل... شريان ووريد ٢١
برسيم للخرفان ٢٩
أطفال المساخيط ٣٧
عنوسة فكر ٤٥
بلاغ ضد مجهووول ٥١
سد حنك صعيدي ٥٧
رحلة إلى حياة الموت ٦٣
أرزاق ٦٩
الكومى... والشايب ٧٣
رسالة إلى الوالي ٧٩
طفولة حب ٨٧
أنا... وهو... ضمائر مختلفة ٩٣
هرشة دمااااغ ٩٩
فص ملح وذاب ١٠٥
الظلم سيئ الأخلاق ١٠٩

شمعة وثلاثة عيدان كبريت..... ١١٥
أم طه تدخل المجلس..... ١٢١
نهاية وبداية..... ١٢٥
الزوجه الثانية وإكسير الحياة ١٣٣
خنجر... وباقة ورد ١٣٥
حماة الوطن ١٣٩
عيون بهية ١٤٣
لقاء حصري... في البرزخ المصري..... ١٤٧

للتواصل مع الكاتب

WhatsApp: 01024408003

Facebook: mostafa mokhtar

E-mail: darshelkady@live.com